أحمد الجوهرى عبد الجواد

أمهات مؤمنات

غيرن وجه العالم





هذا الكتاب منشور في



أمّهاتٌ مُؤمِناتٌ

غيَّرنَ وجهَ العَالم

نماذج من فخر التربية الإسلامية

وبيان دور الأم المسلمة في تربية القادة وتخريج العلماء

تأليف

أبي حفص أحمد الجوهري عبد الجواد

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه جولة في حياة أمّهاتٍ أفذاذٍ استطعن أن يخرّجن علماء وقادة غيّروا بعلمهم ونبوغهم وجهَ العالم وحوّلوا مجرى التاريخ، وقد راعني ما أوتي هؤلاء الأمّهات من عقلٍ وحكمةٍ وفهمٍ حسنٍ، أخذ منه أبناؤهنّ الأئمّة والقادة بقبسٍ فرزقوا نبلاً وأدبًا وحسنَ فهمٍ بلّغهم ذلك الذي بلغوه، وإنّ جولة في تاريخهم وسيرهم لكفيلة ببعث الهمم إلى المعالي، عسى أن تجود علينا الأمهات المعاصرات بقائد يعيد لنا الأمجاد المفقودة ويجدد فينا سيرة الصدّيق والفاروق والعادل والناصر

والفاتح، أو بإمام يحيي منا ميت النفوس ويجدد الثقة في هذا الدين ويعيده إلى دوره في قيادة الحياة.

هدف هذه الجولة هو:

١) التعرّف إلى سِيَر هؤلاء الأمّهات العظيمات.

٢) الوقوف على العوامل المؤثّرة في شخصياتهنّ، واستكناه أسباب العظمة في حياتهنّ.

٣) رصد آليّاتهنّ في تربية أبنائهنّ.

٤) إرشاد الأمّ المسلمة إلى طريق الاقتداء بهنّ وتمثّل تجربتهنّ.

٥) تقديم الحلول لأظهر مشكلات التربية المعاصرة.

٦) تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة في الأمومة والتربية والواقع.

وغير ذلك من الأهداف الفرعيّة التي لا تخلو منها سير أمثال هؤلاء العظيمات وسير أبنائهنّ الكرام الكبار.

إنّها رسالة إلى الأم المسلمة عن:

١) مكانتها في الإسلام.

٢) دورها في الأسرة.

٣) واجبها نحو الأمّة الإسلاميّة.

٤) أهميّة مشاركتها في إعداد القادة.

٥) منافع حضور دورها، ومضارّ غيابه، من خلال عقد المقارنة بين الواقع والنماذج التي عرضتها هذه الدراسة.

وهي محاولة نتعرّف خلالها إلى آثار فهم الأم للدور المنوط بها في مسيرة هذه الأمّة، وأهميّة قيامها به، لندرك السبب الحقيقيّ في رفعة الأمة وعزّتها، والعامل الرئيس في تقهقرها وانتكاستها، ونبصر الطريق التي ينبغي علينا أن نسلكها لنستعيد مكانتنا وريادتنا.

ولندع السطور التالية تتكفّل بكثير مما أردنا البيان عنه، ونمسك عن توضيحه هنا بالقول لنتعرّف إليه من خلالها بالعمل.

والله من وراء القصد

وكتبه أبو حفص

أحمد الجوهري عبد الجواد

غرة شعبان ١٤٣٩هـ

(١) أمُّ راوية الإسلام أنس بن مالك

رضي الله عنه

لو كان لأمّ أن تفخر على ابنها بعطيّة، وأن تفخر بابنها على أمّة الإسلام، وأن تفخر على أمّة الإسلام بحظّ بيتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان ذلك – مجتمعًا – من نصيب أمّ أنس بن مالك، رضي الله عنها وعنه.

فقد قدّمت أمّ أنسٍ لولدها أنس وللأمة خير هديّة، حين أخدمته رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت بذلك سببًا من أسباب حفظ الله للسنّة النبويّة ومن ثمّ حفظ الدّين كلّه، فقد استطاع أنس من خلال خدمته للنبي صلى الله عليه وسلم أن ينقل لنا ألوف الأحاديث، بل نقل لنا من أحواله وأقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم ما لم ينقله غيره؛ لموضعه ذاك؛ إذ أتاح له أن يطلع على ما لم يطلع عليه أحدٌ سواه.

فمن حقّ أمّ أنس إذن أن تفخر بعملها وبابنها وصنيعه ذاك.

لقد كانت فكرة الخدمة تلك من بنيّات أفكار أمّ أنس، فكّرت بها حين غابت عن غيرها من الأمّهات، وسعت في تنفيذها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجاب النّبي الكريم طلبها وحقّق رغبتها.

فعن أنس، قال: قدم رسول الله –صلى الله عليه وسلم – المدينة وأنا ابن ثمان سنين، فأخذت أمي بيدي، فانطلقت بي إليه، فقالت: يا رسول الله! لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلا وقد أتحفك بتحفة، وإني لا أقدر على ما أتحفك به إلا ابني هذا، فخذه، فليخدمك ما بدا لك.

قال: فخدمته عشر سنين، فما ضربني، ولا سبني، ولا عبس في وجهي[١].

ونعم التحفة تحفة أمّ أنس، ونعم الهمّة همّتها، إنها لهمّة عالية ورغبة سامية من تلك الأمّ الكريمة، حين أرادت أن يحظى ابنها بهذا الشرف ويدوم له على طول الزمان فخره وعزّه، وقد كان ذلك، فقد ارتبط اسم أنس على مرّ القرون باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلقب: "خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم"، ذلك اللقب الذي كان أنس يتلقّب به ويفتخر به، فكثيرًا ما كان يقول: إني لأرجو أن ألقى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في يوم القيامة فأقول له: يا رسول الله، هذا خويدمك أنس[٢].

---

[١] حديث حسن، رواه أبو يعلى، (٣٦٢٤)، وغيره، وانظر سنن الترمذي ح (٥٨٩)، وإتحاف الخيرة (٨/٤٠٥) للبوصيري.

[٢] حديث صحيح، رواه أحمد في مسنده، (٣/ ٢٢٢)، وإسناده صحيح على شرط مسلم.

كانت أمّ أنس – واسمها مليكة بنت ملحان، وتُلقَّب بالغميصاء أو الرميصاء، وشهرتها أم سليم[٣] –، هي التي قامت على تربية ابنها والعناية بشأنه، وقد حملت أمانتها بقوة ومضت بها في عزيمة، عهدت عنها من أول يوم دخلت فيه دين الإسلام، فقد كانت تحت مالك بن النضر في الجاهلية، فولدت له أنس بن مالك، فلما بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالإسلام، كانت أم سليم ممن سارع إليه فأسلمت مع قومها، ودعت زوجها مالكًا إلى الدخول في دين الإسلام، فأبى وغضب عليها وهجرها، ثم إنه خرج إلى الشام فهلك هناك[٤]، فلم يزحزحها ذلك عن موقفها، والرجل يومئذ عمود البيت وقوامه وأساسه، فثباتها رضي الله عنها يدل على إيمان راسخ، وجنان ثابت، وعزم قوي، وهمة عالية.

كان على أمّ سليم أن تكمل المسيرة في تربية وليدها وحدها، وقد وفت بذلك وكفت رضي الله عنها، ومن لهذا المقام مثلها وهي ذات العقل الراجح والرأي الناصح؟ وموقفها مع زوجها أبي طلحة يوم وفاة ولدهما يدل على ذلك، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان ابن لأبي طلحة رضي الله عنه يشتكي فخرج أبو طلحة فقبض الصبيُّ، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم –وهي أم الصبي–: هو أسكن ما كان، فقربت إليه العشاء فتعشى ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروا الصبي، فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: أعرستم الليلة؟ قال: نعم، قال: «اللهم بارك لهما»، فولدت غلامًا، فقال لي أبو طلحة: احمله حتى تأتي به النبي صلى الله عليه وسلم، وبعث معه بتمرات، فقال: «أمعه شيء؟» قال: نعم، تمرات، فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم فمضغها، ثم أخذها من فيه فجعلها في فيّ الصبي ثم حنّكه، وسماه عبد الله.

وفي رواية للبخاري قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن، يعني من أولاد عبد الله المولود[٥].

تلك امرأة صابرة مبارك صبرها.

وهي أيضًا ذات حكمة بالغة، فقد ورد في بعض الروايات الصحيحة أنّ أمّ أنس رضي الله عنه علّمته القراءة والكتابة وهو دون عشر سنين، ولم تأت به النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يجيدهما، روى أحمد في مسنده عن أنس قال: أخذت أمّ سليم بيدي مقدم النبي صلى الله عليه

---

[٣] انظر في ترجمتها: الإصابة في تمييز الصحابة (٨/ ٢٢٧).

[٤] الإصابة (٨/ ٢٢٧).

[٥] متفق عليه، رواه البخاري (١٣٠١)، ومسلم (٢١٤٤).

و سلم المدينة فأتت بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله هذا ابني وهو غلام كاتب، قال: فخدمته تسع سنين، فما قال لي لشيء قط صنعته: أسأت، أو: بئسما صنعت[٦].

ومن عرف حال العرب من حيث القراءة والكتابة في ذلك الزمان العتيق أدرك أي عمل عظيم قامت به تلك الأم العظيمة لأجل البلوغ بولدها منازل العظماء، فلله درّها!

ومن عظيم منّة أم سليم على ابنها أنس -وهو شاهد على وفرة فطنتها كذلك- أنها أبت الزواج بعد والده، مشترطة لحدوث ذلك أن يكبر أنس ويجلس في المجالس ويحدث الرجال، فكانت تقول: لا أتزوج حتى يبلغ أنس ويجلس في المجالس، وكان أنس يقول عن ذلك: جزى الله أمّي عنّي خيرًا، لقد أحسنت ولايتي[٧].

تحقق شرط أم أنس في ولدها، وبلغ وجلس مجلس الرجال وتكلم، وجاءها الخطّاب من كل ناحية، وكان فيمن أتاها الصحابي الجليل أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري[٨]، فتزوجت به أمّ سليم وقد أخلف الله عليها به، وكان زواجهما آية من آيات الله تعالى، فإنه حين ذهب لخطبتها، وكان إذ ذاك كافرًا، قالت له أم سليم صاحبة العقل الكبير: "يا أبا طلحة، ما مثلك يُردّ، ولكنك امرؤ كافر، وأنا مسلمة لا تحلّ لي، فإن تسلم فذلك مهري، فأسلم، فكان ذلك مهرها، قال ثابت البناني: فما سمعنا بمهر كان قط أكرم من مهر أم سليم: الإسلام[٩]، وبذلك كان مهرها أعظم مهر عرف في الأمة كلها!

كان مهرها الإسلام، وهذا مهرٌ ما أظنه وقع في التاريخ مثله، ويندر أن يتكرر.

منّ الله على أبي طلحة فكان بعد إسلامه وزواجه من أم سليم من المقدمين في قومه المسلمين من الأنصار في المدينة، فكان أحد النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة، وشهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، وقد كان رضي الله عنه من الشجعان والرماة المعدودين في الجاهلية والإسلام.

لقد شملته بركة أمّ سليم، تلك المرأة والأمّ المباركة.

---

[٦] حديث صحيح، رواه أحمد في المسند (١٢٢٧٣)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[٧] طبقات ابن سعد (١٠/٣٩٦).

[٨] انظر سيرته في: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧).

[٩] أخرجه عبد الرزاق (١٠٤١٧) والطيالسي في مسنده (٢٥٩٠) وغيرهما بإسناد صحيح.

ومن جميل ما قرأته في أمر زواجهما أن أبا طلحة لما خطب أم سليم قالت له: يا أبا طلحة ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد نبت من الأرض؟ قال: بلى، قالت: أفلا تستحي تعبد شجرة؟ إن أسلمت فإني لا أريد منك صداقًا غيره، قال: حتى أنظر في أمري، فذهب ثم جاء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقالت: يا أنس زوّج أبا طلحة، فزوجها[١٠].

تلكم أم أنس، وذاكم عقلها، فمن من النساء تجاريها في ذلك أو تحاول لأعمالها تشبيهًا؟

وقد كان أنسٌ بين هذين العظيمين -أمّ سليم وزوجها أبي طلحة-، ولو قدّر له أن يتربّى بينهما وفي بيتهما لكان صاحب مقام عظيم ولتبوأ مكانة مرموقة في الإسلام، لكن ذلك المقام وتلك المكانة ما كانا أبدًا ليصلا به إلى ما وصله بخدمته رسول الله صلى الله عليه وسلم وتربيته على يدي مربّي الإنسانيّة محمد صلى الله عليه وسلم!

حين بلغ أنس العاشرة من عمره أتت به أمّه أم سليم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ليخدمه ويتربى على يديه، قائلة: "هذا أنسٌ غلامٌ يخدمك"[١١]، فقَبِله رسول الله، وإن أنسًا ليذكر ذلك اليوم ويحدّث به في كل مجلس مفتخرًا ومبتهجًا بما آتاه الله من فضل وأكرمه من نعمة، يذكره بحذافيره حتى إنه ليذكر ملابسه وقتها ما كانت ومن أي نوع، وعلى أي نحو لبسها، يقول: قد أزرتني بنصف خمارها، وردتني ببعضه، فقالت: يا رسول الله! هذا أنيس ابني، أتيتك به يخدمك، فادع الله له، فقال: «اللهم أكثر ماله وولده»[١٢].

ومنذئذ وأنسٌ يتقلّب في نِعَم من ورائها نِعَم، يستمدّها من معين التّربية المصطفويّة ويقبسها من الشّمائل المحمّديّة، ثمّ يذيع ذلك على آذان الأمة لتعيها أذن واعية.

يقول أنس: "خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أفٍّ قَطُّ، وما قال لشيء صنعته لِمَ صنعته، ولا لشيء تركته لِمَ تركته، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خُلُقًا، ولا مسست خزًّا قطُّ ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كفِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت مسكًا قطُّ ولا عطرًا كان أطيب من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم"[١٣].

---

[١٠] حلية الأولياء (٢/ ٦٠).

[١١] يأتي تخريجه من مسند أحمد.

[١٢] أخرجه مسلم (٢٤٨١).

[١٣] أخرجه مسلم (٢٣٣٠)، وغيره.

على مثل هذه القيم العظمى تربّى أنس، وبها تخرج في مدرسة النبوة، ومجال الحديث عن أنس وعن أثر تربية النبي صلى الله عليه وسلم في حياته مجالٌ خصبٌ ينتظر الأقلام المبدعة لتستخرج منه للأجيال دررًا ولآلئ.

أسرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يومًا إلى خادمه أنس بسرّ، وكأنه أمره أن يحمله ويبلّغه عنه إلى بعض نسائه، ثم أوصاه فقال له: لا تخبر بسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدًا، فخرج أنس إلى الطريق، وهو يومئذ صبي يلهو كما يلهو الصبيان ويستهويه ما يستهويهم، فوجد الصبيان يلعبون فقعد يلعب معهم، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في بعض حاجته فوجد أنسًا يلعب، فجاء النبي فسلم على الصبيان ثم أخذ بأذن أنس يداعبها، وقال: أي لكع، ألم أبعثك في حاجة؟ فقال أنس معتذرًا: نسيت، فقال له صلى الله عليه وسلم: الآن فاذهب.

وكأن أنسًا عرّج في طريقه على بيتهم لحاجة، فسألته أمّه أم سليم: فيم كنت؟ فقال لها: كنت في حاجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت -تختبره-: ما حاجته؟ فقال أنس: إنها سرّ! قالت أمّ سليم: احفظ سرّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا تخبر به أحدًا.

لقد كان أنس رضي الله عنه يحدّث بهذا الحديث تلميذه الوفي، "ثابت البناني"، وأنس حينئذ ابن تسعين سنة — وقد مر على الحادثة قريب من ثمانين سنة – فقال له: والله لو حدّثت به أحدًا لحدثتك يا ثابت، وإني ما أخبرت به أحدًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد سألتني أمّي أمّ سليم فما أخبرتها به[١٤].

هذا موقف واحد من ألوف المواقف كانت بين النبي صلى الله عليه وسلم وخادمه أنس، وجميعها ينضح عطرًا ويرشح عنبرًا.

ويسترعي الانتباه في هذا الموقف: حسن تربية النبي صلى الله عليه وسلم في مسلكها، وأثرها، وعظم دور أمّ أنس رضي الله عنها في دعم هذه التربية وتثبيتها وتشجيعها، وطريقتها في ذلك طريقة حسنة، وهي الحوار، ونعما هي:

أبطأ ولدها عن حضوره إلى البيت فسألته: أين كنت؟

فقال: في حاجة رسول الله!

فاختبرته: وما حاجته؟

فأجابها: إنها سرّ!

---

[١٤] سقته من مجموع روايات، انظر: البخاري (٥٩٣١)، وشرح الحافظ على الحديث في فتح الباري (١١/ ٨٢).

فأوصته: احفظ سرّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

وزادته: ولا تخبر به أحدًا.

نعم الأدب الذي يأتي حوارًا، فهو طريقة منتجة وقويّة، ومن جرّب ذلك عرف.

وفي المستفاد من هذا الحديث تفاصيل أخر لها مناسبات هي بها أليق، وموقف أمّ أنس هو دافع سياقه، فلله درها من مربية!

فأيّ أمّ أعظم منّة على ولدها من أم أنس بن مالك بصنيعها ذلك له؟

لقد صار أنس كلّه وكلّ ما قدّمه لهذا الدين في ميزان أمّه، فنعم العطاء الذي أعطته له، ونعم العمل الذي قدّماه لهذا الدين!

لقد كانت أمّ أنس سببًا في دعاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأنس بن مالك أكثر من مرة، وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم له: «اللهم ارزقه مالاً وولدًا، وبارك له»، روى مسلم عن أَنَسٍ، قَالَ: دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنَا وَأُمِّي وَأُمُّ حَرَامٍ، خَالَتِي، فَقَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللهِ خُوَيْدِمُكَ، ادْعُ اللهَ لَهُ، قَالَ فَدَعَا لِي بِكُلِّ خَيْرٍ، وَكَانَ فِي آخِرِ مَا دَعَا لِي بِهِ أَنْ قَالَ: «اللهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ»[١٥].

وقد استجاب الله سبحانه دعاء نبيه، فكان أنس أكثر الأنصار مالًا، وأوفرهم ذرية، حتى إنه رأى من أولاده وحفدته ما يزيد على المائة، وقد بارك الله له في عمره حتى عاش قرنًا كاملاً وفوقه ثلاث سنوات[١٦].

قال أنس –يشير إلى بركة دعاء النبي له–: فقد رأيت اثنتين، وأنا أنتظر الثالثة، والله إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادون على نحو من مئة.

وفي رواية: وإن كرْمي –يعني بستان العنب– ليحمل في السنة مرتين، وإن ولدي لصلبي مائة وستة أولاد[١٧].

وكان آخر أصحاب النبي موتًا[١٨].

وهو صلى الله عليه وسلم من كان كناه أبا حمزة.

---

[١٥] رواه مسلم (٢٤٨١).

[١٦] صور من حياة الصحابة (١٦).

[١٧] انظر: البداية والنهاية (٨/ ٣٠١)، ط هجر.

[١٨] سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٦).

لقد كانت الرميصاء –أم أنس– فقيهة، ومن فقهها قولها –رضي الله عنها– لما سمعت بمقتل عثمان رضي الله عنه: "رحمه الله، أما إنه لم يحلبوا بعده إلا دمًا"[١٩].

وكانت عالمة، أخذت عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرًا من الأحاديث وسألته في كثير من الأحكام، ولذا كانت بعد ذلك تُسأل فتعرف، وتُستفتى فتفتي بما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت رضي الله عنها عاملة بما تعلم، وفيّة للعلم الذي تحمله، فقد وفت بما عاهدت عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع النساء بما أخذ عليهن من عهد، قالت أمّ عطية –رضي الله عنها–: «أخذ علينا النبي صلى الله عليه وسلم عند البيعة أن لا ننوح، فما وفت منا غير خمس نسوة: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ، وامرأة أخرى»[٢٠]، فبدأت بأم أنس رضي الله عنها، وهو فضل أيّ فضل!

وكانت أم سليم تجلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وتوقّره وتعرف فضله وتقدّره وتحرص على بركته واقتفاء أثره، عن أنس أن أم سليم كانت تبسط للنبي – عليه الصلاة والسلام – نطعًا فيقيل عندها على ذلك النطع، قال: فإذا نام النبي صلى الله عليه وسلم أخذت من عرقه وشعره فجمعته في قارورة ثم جمعته في سُكّ – نوعٌ من الطِّيب يُركَّبُ من مسك ورامكٍ–، قال ثُمامة بن عبد الله –حفيد أنس–: فلما حضرت أنس بن مالك الوفاة أوصى إليّ أن يجعل في حنوطه من ذلك السُّكّ، قال: فجعل في حنوطه[٢١].

وعن أنس بن مالك أيضًا، قال: دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عندنا، فعرق، وجاءت أمي بقارورة، فجعلت تسلت العرق فيها، فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا أم سليم، ما هذا الذي تصنعين؟ قالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب[٢٢].

لقد أرادت أم سليم أن ينال بيتها –كما نال ابنها– من بركة النبي صلى الله عليه وسلم، فكان لها أيضًا ما تمنّت؛ إذ لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يدخل بيتًا بعد بيوت أزواجه غير بيت أم سليم وأبي طلحة رضي الله عنهما[٢٣].

---

[١٩] البداية والنهاية (١٩٥/٧).

[٢٠] رواه البخاري (١٢٤٤).

[٢١] رواه البخاري (٥٩٢٥).

[٢٢] رواه مسلم (٢٣٣١).

[٢٣] رواه البخاري (٢٦٨٩).

وكانت السيدة الكريمة إذا زارهم النبي صلى الله عليه وسلم تتحفه بالشيء تصنعه له.

لقد تبوّأ أنس بن مالك رضي الله عنه مرتبة عليّة في الأمّة بمحفوظاته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو يأتي في المرتبة الثالثة بعد ابن عمر وأبي هريرة -رضي الله عنهم- في كثرة الأحاديث التي رواها وحفظها من رسول الله، ويبلغ مسنده (٢٢٨٦) حديثًا، اتفق له البخاريّ ومسلم على (١٨٠) حديثًا، وانفرد البخاري بـ(٨٠)، ومسلم بـ(٩٠) حديثًا[٢٤].

قال السيوطي في ألفية الحديث:

وَالْمُكْثِرُونَ فِي رِوَايَةِ الأَثَرْ   أَبُو هُرَيْرَةَ يَلِيهِ ابْنُ عُمَرْ

وَأَنَسٌ وَالْبَحْرُ كَالْخُدْرِيِّ   وَجَابِرٌ وَزَوْجَةُ النَّبِيِّ[٢٥]

كان النبي قد قدم إلى المدينة وأنس ابن عشر سنين ومات وهو ابن عشرين سنة، فقضى معه أنس عشر سنين يصبح ويمسي مع رسول الله، يحيا معه ويخدمه ويطلع على شئونه كلها.

هذا بعض عطاء أنس لنا ولأمتنا، وهو عطاء أمّه لنا من قبله، وعطاؤها للإسلام وأهله من خلال ولدها، فانظروا كيف تستطيع أمّ أن تقدّم أعظم الخدمات الشرعية والتربوية والحضارية من خلال تربية أبنائها؟

ومن مآثر تلك الأم العظيمة إلى جانب التربية الذي جلينا بعض جوانبه: شجاعتها وإقدامها في المشاهد المختلفة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كانت تخرج فيمن يخرج من النساء، ولها في ذلك قصص كثيرة، منها ما أخرجه مسلم عن أنس أن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرًا فكان معها، فرآها أبو طلحة فقال: يا رسول الله هذه أمّ سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، قالت: يا رسول الله، اقتل من بعدنا من الطلقاء انهزموا بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أم سليم، إن الله قد كفى وأحسن»[٢٦].

عاشت الرميصاء أيام النبيّ فوفت بما عاهدته عليه، وتوفي عنها وهو عنها راض، بل بشرها قبل أن يمضي بالجنة كما في البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِالرّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ وَسَمِعْتُ خَشَفَةً،

---

[٢٤] دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (١/ ٩٨)، وانظر في حياة أنس سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٩٥).

[٢٥] ألفية الحديث للسيوطي، وانظر شرحها لمحيي الدين عبد الحميد (٢٢/٢) دار ابن القيم.

[٢٦] أخرجه مسلم (١٨٠٩).

فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا بِلاَلٌ، وَرَأَيْتُ قَصْرًا بِفِنَائِهِ جَارِيَةٌ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: لِعُمَرَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَهُ فَأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ». فقال عمر: بأبي وأمي يا رسول الله، أعليك أغار؟[٢٧].

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْفَةً – يعني صوت حركة المشي – فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذِهِ الْغُمَيْصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ أُمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ»[٢٨].

وعاشت رضي الله عنها أيام الخير عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين، ثمّ توفيت في حدود الأربعين أيام معاوية رضي الله عنه.

لله درّ أنس بن مالك وأمّه!

كلما مرّ بي ذكره شيئًا يخصّ النبيّ تعجّبت كيف كان ذلكم الغلام يضبط نفسه في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم؟

ثم أجدني أجيب في بساطة وسهولة: إن الذي اختاره لهذا المقام قد هيّأه له!

ثمّ أعود فأتساءل: ترى بأيّ عمل عمله أو خير قدّمه نال أنس هذه المنزلة وفاز بهذه الحظوة؟

وأجدني ثانية أقول: لعل ذلك ليس جزاء عمله هو، ربما كان جزاء أمّه الرّميصاء فأياديها البيضاء في الإسلام لا تعدّ ولا تحصى.

مرّ بي الآن قول أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدر النبي صلى الله عليه وسلم[٢٩] -يقصد حادثة شق الصدر-، فهيّج كلامه المشاعر واستفاضت الأسئلة والأجوبة.

وفي حياة أمّ أنس رضي الله عنها للأم المسلمة فوائد وعبر كثيرة، منها:

- إقدامها على الخير رغم ما يكتنفه من صعوبات ويحفّ به من مكاره، فقد رأيناها تُسارع مع السابقين الأولين إلى الإسلام، ولم تتراجع عن إقدامها حين أبى زوجها موقفها وهجرها لأجله بل ثبتت على المبدأ الذي رأته صوابًا.
- علو همتها وحرصها على خير الخير لابنها.
- إبداعها في موقفها؛ إذ فكرت رضي الله عنها في عمل حققت من خلاله خدمة الإسلام، وخدمة الرّسول، وخدمة الأمة، وخدمة ابنها، وكانت فكرتها تلك فريدة من نوعها.

---

[٢٧] أخرجه أحمد (٣٧٢/٣)، والبخارى (٣٤٧٦)، ومسلم (٢٣٩٤).

[٢٨] أخرجه عبد بن حميد (١٣٤٦)، ومسلم (٢٤٥٦)، وأحمد (١٢٢٧٨).

[٢٩] أخرجه مسلم (٢٦١).

- حرصها على جودة مُخرَجها وإنتاجها فلم تكتف بإيداع ولدها لدى من تثق به السموات والأرض حتى دعمت تلك التربية بالسؤال والتحفيز والتشجيع والتأييد، وكان أنس يقول: كن أمهاتي يحثثني على خدمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –[٣٠].

وغير ذلك من الفوائد التي لا تخفى على اللبيب.

أجزل الله لأم سليم المثوبة والجزاء على ما أعطت الإسلام وبذلت لأجله، ورزقنا بأمهات مثلها يقمن بمثل عملها.

(٢) أمّ أمير المؤمنين

عبد الله بن الزبير بن العوّام رضي الله عنهم

سيرة الأمّ التي بين أيدينا الساعة تتمثل خلالها آيات التضحية والفداء في أسمى معانيها، بل تضرب في ذلك مثلًا لا يصدّقه كثيرون لو خلا من النسبة إليها هي بالذّات، بحيث لو جرّدت هذه السطور من اسمها لكانت موضع شك لدى القارئ الكريم يظن قصتها تلك أسطورة من أساطير الخيال لا قصة حقيقية دارت أحداثها في أرض الواقع، لكن طالما كانت هذه الأم المقصودة هي صاحبة تلك السيرة فهي موضع تصديق ويقين لا شكّ فيهما من جميع القرّاء.

تبدأ أولى أحداث هذه السيرة بزواج هذه الأم وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق من الزبير بن العوّام رضي الله عنهم أجمعين!

والزبير هو الزبير!

- ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية بنت عبد المطلب.
- الملقب من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم: "حواري الرسول"، لقوله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيِّي الزُّبَيْرُ"[٣١].
- أحد العشرة المشهود لهم بالجنة.
- أحد الستة أصحاب الشورى الذين حددهم سيدنا عمر بن الخطاب لاختيار خليفة منهم عقب وفاته.

---

[٣٠] أخرجه أحمد (٣/١١٠)، ومسلم (٢٠٢٩).

[٣١] متفق عليه، أخرجه البخاري (٧٢٦١)، ومسلم (٢٤١٥)، أي: خاصتي من أصحابي وناصري.

- صاحب الفضائل الجمّة ومنها ما رواه ابن سعد بإسناد صحيح عن هشام عن أبيه قال: كانت على الزبير عمامة صفراء معتجرًا بها يوم بدر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الملائكة نزلت على سيماء الزبير"[٣٢]، أي: على صفته، فعن أبي جعفر الباقر رحمه الله، قال: كانت على الزبير يوم بدر عمامة صفراء، فنزلت الملائكة كذلك[٣٣].

وأسماء كالزبير في الشرف والفضل أو هي فوق ذلك، فهي:

- بنت الصديق.
- ذات النطاقين.
- صاحبة السبق إلى الإسلام.
- وشجاعتها وجراءتها في خدمة الإسلام وجهادها في سبيل الله، أمر عظيم يفوق الخيال[٣٤].
- وأمّ أوّل مولود في المدينة بعد الهجرة، ولذلك قصة تبدأ معها سيرة بطلينا الكريمين، وإليك الخبر:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنها حملت بعبد الله بن الزبير في مكة، قالت: فخرجت وأنا مُتمّ فأتيت المدينة، فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة، فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم حنّكه بالتمرة، ثم دعا له، فبرّك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام، ففرحوا به فرحًا شديدًا، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم.

وسماه عبد الله، ثم جاء بعد، وهو ابن سبع، أو ابن ثمان سنين، يبايع النبي صلى الله عليه وسلم، أمره الزبير – رضي الله عنه – بذلك، فتبسّم النبي صلى الله عليه وسلم حين رآه مقبلاً، وبايعه[٣٥].

---

[٣٢] انظر: الطبقات الكبرى (٣/١٠٣)، وصحّح الحافظ إسناده كما في الإصابة (١/٥٤٥).

[٣٣] انظر: المصدر السابق.

[٣٤] انظر: طبقات ابن سعد (٨/ ٢٥٣)، أسماء بنت أبي بكر، (٣٣) للصّباغ، عبد الله بن الزبير (٨) للصلابي.

[٣٥] أخرجه مسلم (٢١٤٦).

كان عبد الله بن الزبير إذن أول مولود ولد في الإسلام في المدينة بعد مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبميلاده بطل سحر يهود الذين كانوا يقولون: قد أخذناهم، فلا يولد لهم بالمدينة ولد ذكر، ولهذا لما ولد عبد الله فرح به المسلمون فرحًا شديدًا وكبّروا تكبيرًا ملأ الآفاق، بل أخذه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - حين ولد فطاف به بالمدينة بعد ولادته؛ ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود، وهذا منه رضي الله عنه أسلوب إعلامي عملي للقضاء على شائعات اليهود التي روّجوا لها بالمدينة، وكان ابن الزبير ملازمًا للدخول على رسول الله لكونه من آله، فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة زوج الرسول[٣٦].

ونقرأ من هذا الخبر أنّ أسماء كانت تشارك في أعمال الهجرة وهي حامل بابنها عبد الله، فيالها من لحظات كريمة مرّت على الابن المبارك وهو جنين في بطن أمّه يخدمان رسول الله صلى الله عليه وسلم معًا وينجزان ما أوكل إليهما من مهام في سبيل إنفاذ هذا العمل العظيم، ألا وهو نقلة الرسول والرّسالة من مكة إلى المدينة وتبليغهما المكان الآمن الذي سيشع منه نور الإسلام وينتشر في ربوع الدنيا.

هكذا فتح الله بعبد الله وأمّه على أهل الإسلام، حين شاركا في هذا الفتح العظيم.

ونقرأ في هذا الخبر كذلك فتح الله بالأمّ وابنها —مرة ثانية– حين أتى المسلمين بسببهما السرور والحبور وأذهب بهما عنهم الهمّ والغمّ وتسلط أهل الكفر والفجور، فبطل سحر يهود وما كانوا يزعمون.

وهكذا كانت هذه الأم وابنها كريمين على أهل الإسلام حبيبين إلى أهله وما زادتهما الأيام ثمّ السنون بمرورها وتتابعها إلا كرامةً وحبًّا.

عاش عبد الله في كنف أمّه أسماء تربّيه وترعاه وتسقيه الخير وتغذّيه به، حتى نشأ وترعرع وشبّ وكبر يحمل المعاني الإسلاميّة الصّافية، والقيم الرفيعة، والخلال الحميدة، عن أمه وأبيه وجدّه لأمّه أبي بكر الصدّيق وخالته عائشة أمّ المؤمنين وجدّته صفية، وقبل أولئك جميعًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتخرّج ابن الزبير عالمِا عابدًا فقيهًا ورعًا، مهيبًا وقورًا، كثير الصيام والصّلاة، شديد الخشوع قويّ السياسة، كما يستقرئ ابن كثير من أخباره[٣٧].

---

[٣٦] سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٤، ٣٦٥).

[٣٧] البداية والنهاية (١١/ ٢٠٤).

وهكذا كان لأسماء —ومعها هؤلاء العظماء- أثر قويّ في علم وتربية ابن الزبير رضي الله عنهم أجمعين.

ولنضرب لذلك مثلًا يخبر عما وراءه، لقد كانت أسماء رضي الله عنها قانتة عابدة، وعنها ورث ابن الزبير ذلك، فقد كان رضي الله عنه مع مُلكه صِنفًا في العبادة[٣٨]، نسيج وحده، روى أبو نعيم في الحلية أن ابنها دخل عليها ذات يوم وهي تُصلى فسمعها تقرأ هذه الآية: {فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} [الطور: ٢٧]، فبكت واستعاذت، فقام وهي تستعيذ، فلما طال عليه قيامها أتى السوق وقضى منه حاجته، ثم رجع فوجدها ما تزال في بكائها تستعيذ[٣٩].

وهكذا كانت تربية أسماء لعبد الله تربية عمليّة ليست تربية وعظيّة أو قوليّة فحسب، من ثمّ كان ابنها عبد الله في كلّ مجال ورثه عنها — وعن آبائه وشيوخه — مثلًا وقدوة، حتى قال عنه ابن عباس – رضي الله عنهما –: كان ابن الزبير قارئًا لكتاب الله، متبعًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قانتًا لله، صائمًا في الهواجر من مخافة الله، ابن حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمّه بنت الصديق، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله وزوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يجهل حقّه إلا من أعمى الله بصيرته[٤٠].

سيدرك المسلمون يومًا أنّ خلاصهم من أزمتهم، ومخرجهم من كبوتهم، ونجاتهم من منحدرهم، وعودة مجدهم وحضارتهم مرهون برعاية المرأة وإيلائها الأهميّة الكبرى التي أولاها إياها المسلمون الأوائل، فهي مصنع الرجال ومبنى القادة الأبطال، وجامعة الأئمة والعظماء، ومتى ما فرّطوا في ذلك وأغفلوه وحادوا عن طريقه وما رعوه حق رعايته فسيظلون في هذه الهاجرة القاحلة، يشقيهم لفحها القاتل ويضنيهم طول المشي في التيه والضلال.

لقد كانت الأم المسلمة عبر التاريخ مخرّجة الرجال ومربية الأبطال ومعلّمة القادة وملهمة العظماء ومنشئة الأئمة والعلماء، وبعكس ذلك كلّه حالنا معها اليوم، وهذا له أسباب، البحث عنها فرض والعمل على تلافيها واجب، والسعي إلى تبديلها لازم.

وإذا كان من العار أن لا تعرف داءك وموضع شكواك وبين يديك من يشخّصه لك ويقفك عليه، فإنّ الأشدّ عارًا هو أن تعرف داءك ودواءك على وجه اليقين ثمّ تتلهّى عنه بأشياء لا نصيب لها من اليقين ولا حظّ لها من الصواب، تزعم أنّك تطلب فيها الشفاء!

---

[٣٨] سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٨).

[٣٩] الحلية (٢/٥٥).

[٤٠] سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٧)، البداية والنهاية (١١/ ١٩١) عبد الله بن الزبير (١٢).

وداؤنا هو المرأة، ودواؤنا أيضًا هو المرأة، فبفسادها فسدت الأمة وبصلاحها وفقهها لدورها ومعرفتها بمسئوليتها تصلح الأمة وتستعيد مكانتها.

وهو ما فهمه السّادة القادة الأوّلون وعملوا عليه فسعدوا بنتائجه وسرّوا بعواقبه.

وأسماء مثالٌ من مئات الأمثلة في تربية القادة الذين فهموا هذا الدين وقاموا بدوره في العالمين، علمًا وعملًا، دينًا ودولة.

كان ابن الزبير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثم في عهد الخلفاء الراشدين مشاركًا في العمل العام، ساعيًا في خدمة الإسلام، مجاهدًا في سبيله ضمن الصفوف الأولى، فإنه قد ألف القتال والعراك وصليل السيوف منذ نشأته[٤١].

وكذلك مرّ عهد معاوية رضي الله عنه وابن الزبير في طلائع الفتح الإسلاميّ في إفريقيا ومحاولات فتح القسطنطينية.

فلما مات معاوية رضي الله عنه وكان قد أخذ البيعة لابنه يزيد وجدّدت الأمة البيعة ليزيد هذا بعد وفاة أبيه؛ كان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما فيمن امتنعوا عن بيعته، وكان يزيد يصرّ على طلب البيعة منه وممن امتنع مثله كالحسين بن علي رضي الله عنهما، وكان ذلك الإصرار بمثابة الشرارة التي أوقدت الفتنة؛ إذ شعر ابن الزبير أنه مطلوب فمسجون أو مقتول، ومثله الحسين وكان من أكابر المتزعمين للامتناع عن البيعة كعبد الله.

"شعر كل منهما بأنه مطلوب، وأنه إذا لم يبايع فسيكون ضحية طيش يزيد، وأن سيوف أعوان الخليفة الجديد أصبحت مسلولة عليهما، فعادا إلى البيت الحرام، ولجآ إلى مكة المكرمة يطلبان فيها الأمان، ويحتميان بحمى الله فيها، ولئن أصاب يزيد حين أبقى عمال أبيه على الولايات، ليضمن استقرار الأمور فيها، فقد خانته عبقريته في إصراره على طلب البيعة من الحسين وابن الزبير، حيث كان إصراره هذا موحيًا بعدم تأمين الحياة لهما، وبأن بقاءهما في عهد يزيد محفوف بالمخاطر، وذلك أدى بهما إلى أن يبحثا عن الأمان، ولم يجداه إلا في تجييش أنصارهما، وحشدهم في مكان يصعب على يزيد وأعوانه أن يقتحموه، وكان ذلك في مكة المكرمة، في جوار بيت الله الذي قال فيه: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران: ٩٧].

---

[٤١] عبد الله بن الزبير (٤١).

ولم يكن لهذا التجمع وذلك الحشد نتيجة سوى المواجهة التي أودت بحياة الآلاف من المسلمين، وكان على رأس هؤلاء جميعًا الحسين بن على – رضي الله عنهما – حيث قتل في كربلاء – شهيدًا – على يد فئة ظالمة من جيوش يزيد[٤٢].

لقد كانت غلطة من يزيد، بدأ بها حياته، وظلت تلاحقه حتى مماته، ولم يستطع التخلص منها، وبدأت سلسلة الأخطاء تتوالي في حياة الخليفة، وكلما ادلهمت الأمور من حوله، عظمت الأخطاء، وتضخّمت المشكلات، وكلما أراد حل مشكلة، عرض لها بمشكلة أخطر منها وأفظع، فمن الإصرار على عدم البيعة إلى تكوين جبهة معارضة تستعد للقتال، ومنها إلى معركة كربلاء، ثم تتمخض هذه المعركة عن قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتؤدي إلى غضب المسلمين، وإعلان ابن الزبير الخروج على الخليفة، وتستمر العداوة والبغضاء حتى تكون وقعة الحرة، وتتشوه صورة الخليفة في أعين المسلمين، ثم يتوفى بعد ذلك بقليل، أين غاب حلم معاوية عن ولي عهده؟ أغلب الظن أن الذي ورط يزيد في هذه الأخطاء الشنيعة هو غياب المستشارين الحكماء عن مجلسه، وحداثة سنه، وقلة خبرته، كما أن يزيد كان يفتقد حلم أبيه، وتنقصه قوة إرادته في الحلول السلمية، لقد كانت الكوارث الكبرى في عهد يزيد: مقتل الحسين – رضي الله عنه –، ووقعة الحرّة بالمدينة، وحصار مكة للوصول لابن الزبير، لقد وصم يزيد عهده بوصمة لن يمحوها ماء البحار، ولن تزيل مرارتها عذوبة الأنهار[٤٣].

وأهل السنة والجماعة يعتبرون بيعة يزيد صحيحة ولكنهم عابوا عليها أمرين:

١–قالوا: إنّ هذه بدعة جديدة وهي أنه جعل الخلافة في ولده، فكأنها صارت وراثة بعد أن كانت شورى وتنصيصًا على غير القريب، فكيف بقريب وابن مباشر؟!

فمن هذا المنطلق رُفض المبدأ بغض النظر عن الشخص، فهم رفضوا مبدأ أن يكون الأمر وراثة.

٢– أنه كان هناك من هم أولى من يزيد بالخلافة كابن عمر وابن الزبير والحسين وغيرهم[٤٤].

كان مقصد ابن الزبير – رضي الله عنه – ومن معه، ومن بينهم بعض الصحابة والتابعين– من معارضة بيعة يزيد ثم الامتناع من أدائها أن تعود الأمة إلى حياة الشورى وأن يضع حدًّا لانتقال

---

[٤٢] الأمويون بين المشرق والمغرب (١/ ١٩٨).

[٤٣] نفسه (١/ ١٩٨)، بتصرف.

[٤٤] حقبه من التاريخ (١٢٤)، بتصرف.

الخلافة إلى ملك ووراثة، فلأجل هذا امتنع عن البيعة ليزيد، ولقد حاول يزيد بطرق سلميّة مع ابن الزبير ليذعن له ويدخل في بيعته إلا أنّه أساء إلى تلك المحاولات جميعها حين أقسم على أنه لا يقبل بيعة ابن الزبير حتى يأتي إليه مغلولاً[٤٥]، ولقد حاول معاوية بن يزيد أن يثنى والده عن هذا القسم، وذلك لمعرفته بابن الزبير، وأنه سيرفض القدوم على يزيد وهو في الغل، وكان معاوية بن يزيد صالحًا تقيًا ورعًا يجنح للسلم ويخشى من سفك دماء المسلمين، وساند معاوية في رأيه عبد الله بن جعفر، ولكن يزيد أصرّ على رأيه، وحتى يخفف يزيد من صعوبة الموقف على ابن الزبير، بعث بعشرة من أشراف أهل الشام، وأعطاهم جامعة من فضة، وبرنس خز[٤٦]، وفي رواية أخرى: أن يزيد بعث لابن الزبير بسلسلة من فضة وقيد من ذهب، وجامعة من فضة[٤٧]، وعند وصول أعضاء الوفد إلى مكة تكلم ابن عضاة الأشعري، وقال: يا أبا بكر، قد كان من أثرك في أمر الخليفة المظلوم -يعني عثمان بن عفان - ونصرتك إياه يوم الدار ما لا يجهل، وقد غضب أمير المؤمنين بما كان من إبائك مما قدم عليك فيه النعمان بن بشير، وحلف أن تأتيه في جامعة خفيفة لتحل يمينه، فالبس عليها برنسًا فلا ترى، ثم أنت الأثير عند أمير المؤمنين الذي لا يخالف في ولاية ولا مال[٤٨].

استأذن ابن الزبير الوفد بضعة أيام يفكّر ويستشير، فعرض الأمر على والدته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، فقالت: يا بني، عش كريمًا ومت كريمًا، ولا تمكّن بني أمية من نفسك، فتلعب بك، فالموت أحسن من هذا[٤٩].

وكان مروان بن الحكم قد بعث ابنه عبد العزيز وقال له: قل لابن الزبير: إن أبي أرسلني عناية بأمرك وحفظًا لحرمتك، فابرر يمين أمير المؤمنين، فإنما يجعل عليك جامعة من فضة أو ذهب وتكسى عليه برنسًا فلا تبدو إلا أن يسمع صوتها، فكتب ابن الزبير إلى مروان يشكره[٥٠]، وجاء رد ابن الزبير على الوفد بالمنع[٥١].

---

[٤٥] أنساب الأشراف (٤/ ٣٠٤)، أخبار مكة (٢/٣٥١) إسناده حسن.

[٤٦] تاريخ خليفة (٢٥١) إسناده حسن، مواقف المعارضة (٥٢١).

[٤٧] الآحاد والمثاني (١/ ٤١٦)، لابن أبي عاصم، بسند صحيح.

[٤٨] أنساب الأشراف (٤/ ٣٠٨)، مواقف المعارضة (٥٢٣).

[٤٩] أخبار مكة (١/ ٢٠١)، بسند كل رجاله ثقات.

[٥٠] نسب قريش (٤٤٩)، مواقف المعارضة (٥٢٤).

[٥١] مواقف المعارضة (٥٢٤).

كانت أسماء هنا حاضرة، وكانت موضع مشورة ولدها عبد الله، وكانت مشورتها له مفعمة بالعزة والكرامة، والانتصار للعلوّ وعدم الذلّ.

وبعد ما أجاب ابن الزبير على الوفد بالمنع قال لابن عضاة: إنما أنا بمنزلة حمام من حمام مكة، أفكنت قاتلاً حمامًا من حمام مكة؟ قال: نعم، وما حرمة حمام مكة؟ يا غلام ائتني بقوسي وأسهمي، فأتاه بقوسه وأسهمه، فأخذ سهمًا فوضعه في كبد القوس ثمّ سدده نحو حمامة من حمام المسجد وقال: يا حمامة، أيشرب يزيد الخمر؟ قولي: نعم. فوالله لئن فعلت لأرمينك، يا حمامة، أتخلعين يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتقيمين في الحرم حتى يستحل بك؟ والله لئن فعلت لأرمينك.

فقال ابن الزبير: ويحك! أو يتكلم الطائر؟ قال: لا، ولكنك يا ابن الزبير تتكلم، أقسم بالله لتبايعنّ طائعًا أو مكرهًا أو لتعرفنّ راية الأشعريين في هذه البطحاء، ولئن أمرنا بقتالك ثم دخلت الكعبة لنهدمنّها أو لنحرقنّها عليك، أو كما قال، من كلامه ذاك السيء الذي يجمع بعض الحق وكثيرًا من الخلط.

فقال ابن الزبير: أو تحل الحرم البيت؟ قال: إنما يحله من ألحد فيه[٥٢].

ثم قال ابن الزبير: إنه ليست في عنقي بيعة ليزيد.

فقال ابن عضاة: يا معشر قريش قد سمعتم ما قال، وقد بايعتم، وهو يأمركم بالرجوع عن البيعة[٥٣]، وأخذ ابن الزبير يبسط لسانه في تنقّص يزيد، وقال: لقد بلغني أنه يصبح سكران ويمسى كذلك، ثم قال: يا ابن عضاة، والله ما أصبحت أرهب الناس ولا الباس، وإني لعلى بينة من ربى، فإن أقتل فهو خير لي، وإن أمت حتف أنفى فالله يعلم إرادتي وكراهتي لأن يعمل في أرضه بالمعاصي، وأجاب الباقين بنحو جوابه[٥٤].

ثم قال ابن الزبير: اللهم إني عائذ ببيتك[٥٥]، ولقب نفسه عائذ الله[٥٦]، وكان يسمى العائذ[٥٧].

---

[٥٢] أنساب الأشراف (٤/ ٣٠٩).

[٥٣] عيون الأخبار (١/ ١٩٦).

[٥٤] أنساب الأشراف (٤/ ٣٠٩).

[٥٥] مواقف المعارضة (٥٢٥)، نقلاً عن ابن عساكر.

[٥٦] الإصابة (٤/ ٤٩) سنده صحيح.

[٥٧] تاريخ الطبري، نقلاً عن مواقف المعارضة (٥٢٥).

وهكذا كان عبد الله شديدَ الاعتزاز بنفسه وبرأيه في الحقّ وكان فقيهًا بصيرًا، وحين أتاه أخوه عمرو بن الزبير رسولًا من قبَل يزيد على رأس جيش يبغي إجبار عبد الله وإكراهه على البيعة وقبول صفتها التي حددها يزيد في قسمه، كان ابن الزبير يقول له: "إني سامع مطيع وأنت عامل يزيد، وأنا أصلى خلفك، وما عندي خلاف، فأما أن تجعل في عنقي جامعة، ثم أقاد إلى الشام، فإني نظرت في ذلك، فرأيت أنه لا يحل لي أن أحله بنفسي، فراجع صاحبك واكتب إليه.

ولكن عمرو بن الزبير اعتذر من عدم الكتابة ليزيد، وذلك لأنه جاء في مهمة محددة مطلوب منه تنفيذها"[٥٨].

لقد ارتكب يزيد خطأ فادحًا عندما أقسم أن يأتيه ابن الزبير إلى دمشق في جامعة تغل رقبته، فكيف يعقل من صحابي جليل تجاوز الستين من عمره، عرف طيلة حياته بالعزة والإباء أن يرضخ لهذا الطلب[٥٩].

وقد رفض ابن الزبير هذا الطلب بالعزة التي أورثتها إياها أمه أسماء، وبمشورتها في خصوصها أخذ وعليها مضى.

وقد مات يزيد بعد هذا بقليل، ولما يحسم الأمر، وبوفاة يزيد سنة ٦٤ هـ، انسحب جيش الحصين من حصاره لابن الزبير في مكة، ودعا عبد الله بن الزبير إلى نفسه، فبايعه أهل الحجاز، وبدأت البلاد في البيعة له، فدعا له النعمان بن بشير بحمص، وزفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، والضحاك بن قيس بدمشق، وأتته بيعة الكوفة والبصرة وخراسان واليمن ومعظم الشام.

وبعث ابن الزبير عماله، فولّى أخاه مصعبًا المدينة، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة البصرة، وعبد الله بن مطيع الكوفة، وعبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري مصر، والضحاك بن قيس الشام، كما بعث ولاة لليمن وخراسان.

ولهذا الاجتماع على بيعته رضي الله عنه من معظم الأمصار عدّه مالك وابن عبد البر وابن حزم وابن كثير والذهبي الخليفة الشرعي للمسلمين بعد وفاة يزيد.

---

[٥٨] عبد الله بن الزبير (٤١).

[٥٩] الموفقيات للزبير بن بكار (١٥٢)، نقلاً عن مواقف المعارضة (٥٣١)، بتصرف.

ولم يكن بقي من بلاد الإسلام إلا بعض أجزاء من الشام فقد بايعت لمعاوية بن يزيد وسرعان ما تنازل الرجل الكبير القدر الصغير السنّ عن هذه البيعة وترك الأمر تحسمه الشورى، فأحسن، ولو أنّه أتمّ إحسانه ذاك فتنازل لابن الزبير لكان قد جمع كلمة المسلمين ولم يتركها بعد ذلك لخصام وانقسام جديدين، لكنه فعل ما استطاع، وعلى إثر ذلك بايعت بعض القيادات الشامية ابن الزبير ورفضت بعضها وبايعت مروان بن الحكم، وعقد مروان البيعة لولده عبد الملك من بعده، وهو ما كان، فبعد وفاة مروان تولى ابنه عبد الملك، وبدأ الدفع مرة ثانية بين الشاميين والحجازيين.

برز دور أسماء في حياة ابن الزبير رضي الله عنهم أجمعين مرة أخيرة، وذلك بعد هذه الحادثة بقريب من ١٧ عامًا، أثناء حصار ابن الزبير من قبل جيش عبد الملك بن مروان بقيادة الظلوم الغشوم الحجاج بن يوسف الثقفي فقد كانت أسماء بنت الصديق هناك ترسم لابنها طريق الأحرار، فبعد انتهاء موسم الحج نادى الحجاج في الناس أن يعودوا إلى بلادهم لأنه سيعود إلى ضرب البيت بالحجارة[٦٠]، وبالفعل بدأ يضرب الكعبة، وشدّد على ابن الزبير، وتحرّج موقفه وانفضّ عنه معظم أصحابه، ومنهم ابناه حمزة وخبيب، اللذان ذهبا إلى الحجّاج وأخذا منه الأمان لنفسيهما[٦١].

فلما رأى عبد الله ذلك دخل على أمّه فقال لها:

يا أمه، خذلني الناس حتى ولديّ وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟

فقالت أسماء: "أنت –والله– يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن قلت: كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس من فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن".

فدنا ابن الزبير فقبّل رأسها وقال: هذا –والله– رأيي، والذي قمت به داعيًا، إلى يومي هذا ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل

---

[٦٠] الكامل في التاريخ (٦٩/٣).

[٦١] نفسه (٧٠/٣).

حرمه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد منكرًا، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي، اللهم إني لا أقول هذا تزكية مني لنفسي، أنت أعلم بي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني.

فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حسنًا إن تقدمتني، وإن تقدمتك ففي نفسي، اخرج حتى أنظر إلى ما يصير أمرك.

قال: جزاك الله يا أمه خيرًا، فلا تدعي الدعاء لي قبل وبعد.

فقالت: لا أدعه أبدًا، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق، ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي، اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت فأثبني في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين[٦٢]، فتناول يديها ليقبلها، فقالت: هذا وداع فلا تبعد.

فقال لها: جئت مودعًا لأني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا.

قالت: امض على بصيرتك وادن مني حتى أودّعك.

فدنا منها فعانقها وقبلها فوقعت يدها على الدرع.

فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد.

فقال: ما لبسته إلا لأشد منك.

قالت: فإنه لا يشد مني، فنزعها ثم أدرج كميه، وشد أسفل قميصه، وجبة خز تحت القميص، فأدخل أسفلها في المنطقة، وأمه تقول:

البس ثيابك مشمرة، ثم انصرف ابن الزبير وهو يقول:

إني إذا أعرف يومي أصبر ... وإنما يعرف يومه الحُر

فسمعت والدته قوله فقالت: تصبر والله إن شاء الله، أبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب[٦٣].

---

[٦٢] تاريخ الطبري (٧٦/٧).

[٦٣] تاريخ الطبري (٧٧/٧).

إنّ الثبات على المبدأ -وإن كان يعارض مصالح الشخص، ويعرضها للخطر- يعتبر من أنبل الصفات، وقد تأصلت هذه الصفة في ابن الزبير، فما وهن وما ضعف وما استكان في سبيل المبادئ التي نادى من أجلها، ففي آخر يوم من حياته صلى ركعتي الفجر ثم تقدم وأقام المؤذن فصلى بأصحابه فقرأ: {ن وَالْقَلَمِ} حرفًا حرفًا، ثم سلم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم خطب خطبة بليغة جاء فيها: "... فلا يرعكم وقع السيوف فإني لم أحضر موطنًا قط إلا ارتثثت فيه من القتل، وما أجد من أدواء جراحها أشد مما أجد من ألم وقعها. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم، لا أعلم أمرأ كسر سيفه، واستبقى نفسه، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل، غضوا أبصاركم عن البارقة، وليشغل كل امرئ قرنه، ولا يلهينكم السؤال عني، ولا تقولن: أين عبد الله ابن الزبير؟ ألا من كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول.

أبي لابن سلمى أنه غير خالد ... ملاقي المنايا أي صرف تيممًا

فلست بمُبتاع الحياة بسُبَّة ... ولا مُرتَق من خشية الموت سُلَّما

احملوا على بركة الله"، ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون، فرُمي بآجرة فأصابته في وجهه فأرعش لها، ودمي وجهه، فلما وجد سخونة الدم يسيل على وجهه ولحيته قال:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما[٦٤].

وقاتلهم قتالاً شديدًا، فتعاونوا عليه فقتلوه، وكان ذلك يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة، سنة ٧٣ هـ، وله ٧٣ سنة[٦٥]، وتولى قتله رجل من مراد، وحمل رأسه إلى الحجاج، وسار الحجاج وطارق بن عمرو حتى وقفا عليه، فقال طارق: ما ولدت النساء أذكر من هذا.

فقال الحجاج: أتمدح مخالف أمير المؤمنين؟ قال: نعم هو أعذر لنا، ولولا هذا لما كان لنا عذر، إنا محاصروه منذ سبعة أشهر وهو في غير جند ولا حصن ولا منعة فينتصف منا، بل يفضل علينا، فبلغ كلامهما عبد الملك فصوّب طارقًا[٦٦].

وصلب الحجاج الأثيم جثمانَ عبد الله بن الزبير فلما علقه ظهرت منه رائحة المسك[٦٧]، وقد ذكر أن ابن الزبير في يوم استشهاده قال: ما أُراني اليوم إلا مقتولاً، لقد رأيت في ليلتي كأن

---

[٦٤] تاريخ الطبري (٧٩/٧).

[٦٥] المصدر نفسه (٧٣/٣).

[٦٦] المصدر نفسه (٧٣/٣).

[٦٧] المصدر نفسه (٧٣/٣).

السماء فرجت لي، فدخلتها، فقد –والله– مللت الحياة وما فيها[68].

ولما قتل عبد الله خرجت إليه أمه حتى وقفت عليه، وهي على دابة، فأقبل الحجاج في أصحابه فسأل عنها فأخبر بها، فأقبل حتى وقف عليها فقال: كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره؟ قالت: ربما أُديل الباطل على الحق، وإنك بين فرشها والجيّة، فقال: إن ابنك ألحد في هذا البيت، وقد قال الله تعالى: {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج:٢٥] وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم، قالت: كذبت، كان أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وسُرّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحنكه بيده، وكبر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحًا به، وقد فرِحتَ أنت وأصحابك بمقتله، فمن كان فرح يومئذ خير منك ومن أصحابك، وكان مع ذلك برًّا بالوالدين صوامًا قوامًا بكتاب الله معظمًا لحُرم الله، يُبْغِض أن يُعصى الله عز وجل[69].

ودافعت أسماء عن ابنها دفاعًا مجيدًا، فانكسر الحجاج وانصرف، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه يلومه في مخاطبته أسماء وقال: مالك ولابنة الرجل الصالح[70].

إنّ تمسُّك المرأة المسلمة بعقيدتها وتضحيتها لأجل فداء تلك العقيدة بالمال والزوج والولد والنفس نموذج بارز ظاهر شائع في ديننا، وأخبار السيرة تفيض بذلك فيضًا؛ تؤثر الأمهات دينهن على دنياهنّ وأخراهنّ على أولاهنّ ويقدّمن أغلى ما يملكن مساهمة في عزّ هذا الدين، وبمثل أولئك تنتصر العقائد وتعزّ الأمم.

وموقف أسماء من أعلى هذه النماذج وأعظمها، أو هو أعلاها وأعظمها؛ إذ إن الشيء ينفس وترتفع قيمته عند تفرّده، وقد كانت أسماء في زمن عزّ فيه ذلك وندر، والموقف فيه حسّاس يوزن بميزان الدقّة بحيث لا يفهمه جميع النّاس، وهذه ندرة أخرى تعتبر إلى جوار الأولى فترفع من شأن ذلك الموقف.

وليس هذا الموقف بغريب في حياة أسماء.

إنّ الدور المنوط بالأمّ في تربية القادة وتخريج العلماء دور أساسي لا يقوم به عنها أحد غيرها كائنًا من كان، وعلى قدر وعي الأم ومن ورائها المجتمع بهذا الدور يعظم المخرج، وهذا واضح جدًّا في حياة العظيمات والعظماء الذين تناولنا سيرهم هنا، لقد استطعن أن يخرجن للأمة قادة

---

[68] سير أعلام النبلاء (٣/٣٧٨).

[69] البداية والنهاية (١١/٢٠٩).

[70] نفسه، وقد نقلت هذه الأحداث الأخيرة من كتاب عبد الله بن الزبير للصلابي، بتصرف يسير.

وأئمة غيّروا وجه العالم وحولوا مجرى التاريخ، وهذا ليس ببعيد عن من سعت إليه وقصدت، والله يرعاها ويشد من أزرها ويعينها، فمن التي تنوي هذا؟ ومن تعمل له بجد؟

رحم الله أسماء ورحم الله ولدها ورضي عنهما في الأولين والآخرين، وسلام عليهما في الخالدين إلى يوم الدّين، آمين.

(٣) أمّ إمام الحفّاظ وسيد الزهّاد

سفيان بن سعيد الثوري رحمهم الله تعالى

تتقدم الكلمات نحو أخبار هذه الأمّ العظيمة وولدها في تواضع وحياء شديدين، ذلك أنّ ظلال ورعهم وزهدهم تلقى على المتأمّل في حياتهما فتكسوه رهبة وتعلوه هيبة يليقان بالمقام الذي تبوّءاه خلال التاريخ.

كان سفيان فقيهًا صاحب رؤية ومحدثًا صاحب سنّة، وقد بلغ القمّة في هذين المجالين كليهما، فقد صار رأس مذهب فقهيّ عرف بالمذهب الثوري أو مذهب سفيان، وكان له أصحاب وأتباع يتمذهبون به ويرون رأيه ويتديّنون به، وظلّ ذلك مشهورًا إلى قريب من القرن الثامن الهجري، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما الأئمة المذكورون فمن سادات أئمة الاسلام فإن الثوري إمام أهل العراق، وهو عند أكثرهم أجل من أقرانه كابن أبي ليلى والحسن بن صالح بن حي وأبي حنيفة وغيره، وله مذهب باقٍ إلى اليوم بأرض خراسان"[٧١].

ومعنى ذلك أن مذهب سفيان قد عاش ستة قرون، بل ربما يزيد كما سيأتي، فقد دوّنت مسائله، وأوّل من دوّنها صاحب المذهب سفيان نفسه، وضع فيه كتابًا سمّاه: الجامع، وعرف بعده بجامع الثوري، ويظهر أنهما اثنان، لا واحد، جامع صغير وجامع كبير، ويظهر كذلك أن أحدهما خاص بالآثار والثاني مختلط فيه الرأي بالآثار، وهذا الأخير هو الذي عابه أحمد فقد كان يرى تجريد الآثار عن الرأي، وهو ما عابه أيضًا على موطّأ مالك، ولأحمد في هذا مذهب شديد معروف عنه.

وللباحث رياض حسين عبد اللطيف كتاب بعنوان: "جامع سفيان الثوري .. منزلته . معالمه . رواياته" نشر في الدار الأثرية بعمّان.

---

[٧١] مجموع الفتاوى (٢٣/٢٢٤).

وقد صنّف العلماء كتبًا على مذهب سفيان عرفت وتداولها النّاس، واطلع عليها العلماء وظلّت متوفرة مشهورة حتى عصر الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى، كما يظهر من قوله في الفتح: "وما حكيناه عَن الثوري، حكاه أصحابه عَنْهُ فِي كتبهم المصنفة عَلَى مذهبه"[٧٢]، وقال في موضع آخر: "وكذلك نقل أصحاب سفيان مذهبه في تصانيفهم، وحكوا أنّ سفيان ذكر أن الناس أجمعوا على ذلك"[٧٣].

بقي مذهب سفيان إلى هذا الوقت إذن، وربما بعده، فأفاد منه العلماء والفقهاء ودوّنوا مسائله في كتبهم.

وهناك من الباحثين المعاصرين من اهتمّ لمسائل هذا المذهب فقام على جمع بعضها وتصنيفه وتقدّم به بعضهم في رسائل لأجل نيل الدرجات العلميّة[٧٤].

هذا هو الثوري الفقيه صاحب المذهب، وخامس الأئمة الأربعة المجتهدين.

وسفيان أيضًا أمير المؤمنين في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، بشهادة الكبار الكرام أهل الفنّ، فقد قال شعبة وابن عيينة وأبو عاصم ويحيى بن معين وغيرهم: سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث[٧٥]، وقال الإمام العظيم عبد الله بن المبارك: كتبت عن ألف ومئة شيخ ما كتبت عن أفضل من سفيان[٧٦].

وليس أحد من العلماء في زمان سفيان أجل مرتبة أو أعظم منزلة أو أكثر تلامذة أو أفضل طلابًا منه رحمه الله.

وسفيان مفسّر أيضًا، فقد عرف رحمه الله بالعلم بالتفسير، حتى كان يقول: "سلوني عن المناسك والقرآن، فإنّي بهما عالم"[٧٧].

وقد نشر "تفسير سفيان الثوري" لأول مرة في الهند بتحقيق الأستاذ إمتياز علي عرشي، ثم نشرته دار الكتب العلمية بعناية لجنة من المختصّين.

---

[٧٢] فتح الباري لابن رجب (٦/ ١١٤).

[٧٣] فتح الباري لابن رجب (٢/ ٢٨٠).

[٧٤] كثير هم، انظر – مثلًا –: الإمام سفيان الثوري: وآراؤه الفقهية مقارنة بالمذاهب الأخرى، د. سوسن فريد فلاحة.

[٧٥] سير أعلام النبلاء ط الرسالة (٧/ ٢٣٨).

[٧٦] سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٣٧).

[٧٧] الجرح والتعديل (٢/ ٢٢٤).

كان سفيان إذن إمام مذهب فقهي، وأمير المؤمنين في الحديث، ومفسرًا عالي الكعب في تفسير كتاب الله تعالى.

وسفيان بعد ذلك إمام في علوم كثيرة، ويكفيه أنّ الإمام القدوة العابد شيخ الإسلام شعيب بن حرب قال: إني لأحسب أنه يجاء غدًا بسفيان حجة من الله على خلقه، يقول لهم: لم تدركوا نبيكم صلى الله عليه وسلم، قد رأيتم سفيان[٧٨].

بل قال عنه بشر الحافي: سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما[٧٩].

وبالجملة فقد قال الإمام أبو بكر الخطيب عنه: وكان إمامًا من أئمة المسلمين، وعلمًا من أعلام الدين، مجمعًا على إمامته بحيث يستغنى عن تزكيته، مع الاتقان، والحفظ، والمعرفة، والضبط، والورع، والزهد[٨٠].

ويظهر لنا من ترجمة سفيان أنه نشأ بين أبويه، فقد عاش أبوه إلى سنة (١٢٧هـ) تقريبًا، فإذا كان سفيان قد ولد في سنة (٩٧هـ) فيكون عمره لما توفي أبوه ثلاثين سنة تقريبًا، وقد كان والده سعيد أحد محدّثي الكوفة الثقات الذين حازوا مديح أئمة التعديل كابن معين وابن المديني والعجلي والنسائي وغيرهم، فقد أجمعوا على توثيقه وقبول روايته في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد روى الحديث عن خلق كثيرين، وروى عنه خلق آخرون كان منهم ابناه المبارك وسفيان[٨١].

ويفيد الإمام الذهبي بأنّ سفيان طلب العلم وهو حدَث باعتناء والده المحدث الصادق سعيد بن مسروق الثوري، ثمّ يقول: وكان والده من أصحاب الشعبي وخيثمة بن عبد الرحمن، ومن ثقات الكوفيين، وعداده في صغار التابعين، روى له الجماعة الستة في دواوينهم، وحدّث عنه أولاده سفيان الإمام وعمر ومبارك، وشعبة بن الحجاج وزائدة وأبو الأحوص وأبو عوانة وعمر بن عبيد الطنافسي وآخرون"[٨٢].

وهكذا استفاد سفيان من والده وتلقّى العلم عنه وروى الحديث، وهو أوّل شيوخه ومعلّميه ومربّيه —الذين يذكر أنّ تعدادهم يفوق ست مئة شيخ-، وكانت أمّه الثانية، فقد كانت أمّ

---

[٧٨] سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٣٩).

[٧٩] سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٣٩).

[٨٠] تاريخ بغداد (١٠/ ٢١٩).

[٨١] انظر التهذيب (٨٢/٤).

[٨٢] سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٣٠).

سفيان صاحبة علم وفقه، وذات زهد وورع، وقد ذكرها ابن الجوزي والمناوي في الصالحات المتورّعات من النساء[٨٣].

ويظهر أنّ البيت كلّه تأثّر بهذين الوالدين العالمين الفاضلين، إذ شكّلا رحمهما الله بيئة خصبة صالحة لإنتاج العلماء والأئمة، ومن ثمّ رأينا إخوة سفيان جميعًا من ذوي النباهة والذكر في طريق العلم، الذكور منهم والإناث على السواء، فأخواه: المبارك وعمر كانا من أولي العلم والفضل، حملة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وقد ذكرهما العلماء كابن قتيبة والمقدسي وابن حزم والحاكم والعسقلاني وغيرهم في كتبهم[٨٤].

وأخته كانت أمّ عمّار بن محمّد المحدّث الذي ترجمه ابن سعد في الطبقات الكبرى[٨٥].

وسفيان –أحد أفراد هذه الأسرة– هو سفيان.

وهكذا البيئة الصالحة الطيّبة تخرج نباتها بإذن ربها، وينشأ الناشئ فيها على ما تعوّده من الخير فيشبّ عليه ويهرم:

وينشأ ناشئ الفتيان منا *** على ماكان عوّده أبوه

وهنا حديث طويل لعلماء الإسلام في علم الاجتماع وعلم النفس وغيرهما، يراجع في مظانّه.

ولو كان لي أن أشير إلى شيء منه لأشرت إلى بعض نتائج هذه البيئة المبكّر التي يحملها هذا الخبر: قال يحيى بن أيوب العابد: حدثنا أبو المثنى قال: سمعتهم بمرو يقولون: قد جاء الثوري قد جاء الثوري، فخرجت أنظر إليه فإذا هو غلام قد بقل وجهه، قال الذهبي: كان ينوّه بذكره في صغره من أجل فرط ذكائه وحفظه وحدّث وهو شاب"[٨٦].

ولهذا كان الإمام أبو إسحاق السبيعي إذا رأى سفيان الثوري مقبلًا قال: {وآتيناه الحكم صبيًّا}[٨٧].

في هذه البيئة ولد سفيان الثوريّ ونشأ وترعرع، ومنها تعلّم وتفقّه، وفيها تخرّج وتربّع، وكان لأمّه العالمة الفاضلة أثرٌ كبيرٌ في تنشئته وتوجيهه إلى الطريق الصحيحة في حياته تلك، وهو يحدّث بنفسه عن هذا الأثر وقتما صار إمامًا، يقول: لما أردت أن أطلب العلم قلت: يا رب! إنه لابد

---

[٨٣] انظر: ترجمة الثوري في مقدمة تفسير الثوري (ص ٨)، دار الكتب العلمية، واستفدت منها في مواضع.

[٨٤] انظر –مثلًا–: التهذيب (٤٥٢/٤)، وترجمة الثوري في مقدمة تفسير الثوري (ص ٨).

[٨٥] الطبقات الكبرى (٢٥٨/٦).

[٨٦] سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٣٦)، وبقل وجهه وأبقل: خرجت لحيته، انظر: مختار الصحاح (٧٣/١).

[٨٧] سير أعلام النبلاء (٢٣٧/٧).

لي من معيشة، ورأيت العلم يدرس -أي: ينسى ويهجر- فكنت أفرّغ نفسي لطلبه، وسألت ربي الكفاية[٨٨].

لقد عزم سفيان فصدق العزم، ثم رأى أن لا مُعين له إلا الله فتوجّه إليه بطلبه، ثم توكّل على الله وانطلق في طريقه على ثقة من كفاية ربّه.

ويُظهر لنا ذلك الخبر أنّ بيت سفيان كان بيتًا رقيقًا، وأنّ والده كان فقيرًا، وهذا واضح في آثار أخرى، فقد سئل مرة: لماذا لم يرحل إلى الزهري؟ فأخبر بأنه لم تكن ثمة دراهم يستعين بها على الرحلة إليه، ولهذا لم يرحل إليه، وفي خبر آخر أنه رحل إلى بخارى يطلب ميراثًا عمّ له كان بها فمات، وسفيان إذ ذاك ابن ثمانية عشر عامًا.

عزم سفيان على المضيّ في طريقه لطلب العلم وفي قلبه العزيمة على إدراك العلم قبل أن يدرس وينسى فتفرّغ له كامل التفرّغ، وشدّ الله عزمه ذاك بوالدته، نعم فقد تكفلت والدته بالإنفاق عليه وقالت له: يا سفيان، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي.

الله أكبر! اطلب العلم، لا اخرج إلى العمل ودع هذه الأوراق، إنها لا تغني عنّا الآن شيئًا، فلا تطعمنا ولا تسقينا ولا تؤوينا ولا تكفينا، أو آخرون يطلبون العلم وقت الكفاية والسعة ويفرّون وقت الشدة والضيق، كأنما ينشدون فيه التسلية والطرف، أو يبغون به التنزّه والسّمر!

اطلب العلم وأنا أكفيك، كلّ منّا فيما يحسنه، أنت في العلم وأنا في العمل.

اطلب العلم وأنا أكفيك، تكفيني وأكفيك، أنا أكفيك المؤنة وأنت تكفي أمتي فقه الكتاب والسنّة.

اطلب العلم وأنا أكفيك، لا تلتفت بقلبك عن عزمك بل امض إلى رضا ربّك، دع هذه الأمور التي تعوق فكرك وتشغل نفسك إن انشغلت بها، دعها لي، فما هي إلا وسائل، وتفرّغ أنت للمعالي والمقاصد والغايات والأهداف الكبار.

اطلب العلم وأنا أكفيك، جاهد بعلمك وأنا أجاهد بك وبقواي، ولي مثل أجرك مرتين، مرة بك حين حملتك ووضعتك وأرضعتك، ومرة حين وجهتك وكفيتك.

اطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي، بمغزلي ذاك الصغير سأشق طريق الصخر لأوفّر لك ما تشق به الظلم وتكشف به عن وجوه الملح والدرر، وأسعى في الحصول على الدريهمات لترحل بها

---

[٨٨] انظر: تاريخ الإسلام (٤/ ٣٨٣).

في نيل المكرمات، سأسهر الليل والنهار أغزل لتتوفر أنت على حلق الذكر بالنهار في الطلب وعلى مدوّناتك في دجى الليل تحفظ وتتأمل وتتفقه.

فيا سفيان! اطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي.

ومضى سفيان يتلقى العلم عن شيوخه بل بحوره، لا يقنع منها بالأنهر الصغار، ولو لم يجد الأبحر يستكثر من الأنهر حتى يجتمع لديه منها بحر بعد بحر، فأخذ عن كلّ من يحمل علمًا أو خبرًا[٨٩].

وكانت كلمات أمّه في أثره تدفعه للاستكثار من العلم والمعرفة والتعب في التحصيل، وكان حالها في نفسه أوقع وأشدّ من كلماتها تلك، فما أضاع لحظة أو دونها في غير فائدة، وكان يقول: لا نزال نتعلم العلم ما وجدنا من يعلمنا[٩٠].

حتى صار سفيان هو سفيان.

لكنّ أمّ سفيان إذ تبعث به إلى حلق العلم آمنًا على قوت يومه، مكفيًّا طلب رزقه، لا تبعثه ليطلب العلم الذي يكاثر به القرناء ولا يجاري به الخلان ولا يصرف به وجوه النّاس إليه، لكن العلم الذي يكسبه عملًا ويرى عليه أثره، فهي إذ تقول له: اذهب فاطلب العلم حتى أعولك أنا بمغزلي، تتبع ذلك بقولها أيضًا: فإذا كتبت عدة أحاديث فانظر هل تجد في نفسك زيادة، فاتبعه، وإلا فلا تَبْتَغِينَّ[٩١].

إن وراءَ سعيه في الحلق أمٌّ تنتظر حصيلته فيما يسعى له، ولعله وقت هذا الحوار كان يفكّر في أوّل كلماتها تلك في جهد العلم، فإذا بها توجّهه إلى أنّ طلبها لا يعني الكمّ وإنما يعني الكيف أيضًا، فلا قيمة للكمّ دون كيف، فالمطلوب منه حينئذ ليس جهد العلم فقط، ولكن جهد العلم وجهد العمل، كليهما.

فإذا كتبت عدد أحاديث فانظر هل تجد في نفسك زيادة؟ فإن وجدت فاتبعه، وإلا فلا تَبْتَغِينَّ زيادة من العلم طالما لا تجد لها زيادة في العمل، لأنها لا فائدة ترتجى منها حينئذ إلا زيادة الوزر عليك في إقامة الحجة بتركك العمل، وأيضًا من شغل الفارغين أن تعمل سقّاء تدور على النّاس بالماء وأنت عطشان لا تشرب وتظلّ هكذا دهرك حتى تلقى حتفك!

وليس من عمل العقلاء أن تكون كالحمار يحمل أسفارًا، أو أن تكون:

---

(٨٩) علو الهمة (١٤٨)، للمقدم.

(٩٠) حلية الأولياء (٦/ ٣٦٣).

(٩١) المدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقي (١/ ٤٢٧).

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

وقد استعاذ العلماء المخلصون من أن يكونوا جسرًا يعبر الخلق عليه إلى الجنّة ويلقى به في النار، وذلك يكون حين يعظونهم بما لا يفعلونه هم، فينتفع الناس ويحرمون هم، وينجوا الناس ويهلكون هم.

تلك أمٌّ عالمة صالحة ورعة، ولهذا جازاها الله في غرسها وزرعها جزاء حسنًا فكانت ثمرته بل ثماره طيبة يانعة لا تزال تؤتي أكلها وحسناتها من يومها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هكذا كانت الأمّ فكان سفيان.

وهكذا كان سعيها لهدفها ووضوحه لديها، واستعداداتها للتضحية في سبيله، وهكذا كانت رعايتها لهذا الهدف وتعهدها له بالمراقبة، والمناصحة، ومما قالته له ذات مرة في هذه السبيل: أي بني، إذا كتبت عشرة أحرف، فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك، فاعلم أنها تضرّك ولا تنفعك.

لا جرم تخرّج سفيان من جامعة العمل كما تخرّج من جامعة العلم، وقد ترجمه الإمام الذهبي فبدأ ترجمته بقوله عنه: "هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه"[٩٢].

وفي بعض روايات العلماء لمقولة أمه زيادة فائدة، فقد قال الإمام أحمد بن حنبل سمعت وكيعًا يقول: قالت أم سفيان لسفيان: "اذهب فاطلب العلم حتى أعولك أنا بمغزلي، فإذا كتبت عدة أحاديث فانظر هل تجد في نفسك زيادة فاتبعه، وإلا فلا تتبعني"[٩٣].

وإلا فلا تتبعني، يعني لا تكون منّي ولا أنا منك، ولا تنتسب إليّ وتقول: هذه أمّي، ولعمر الله هذا في وقعه من الأم على ولدها شديد، ولهذا تأثّر سفيان بهذه الكلمة في علمه وعمله، وبقيت دافعته حتى صار العمل ديدنه وطبعه وهدفه وغايته.

وفي بعضها: أن والدة سفيان قالت له: يا بني اطلب العلم وأنا أعولك بمغزلي، وإذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في الخير، فإن لم تر ذلك فلا تتعنّ[٩٤].

أي: لا تتعب نفسك فيما لا نفع فيه.

وهكذا ينبغي لمن زرع زرعًا أن يجوّد أصله، ويتقن غرسه، ويعرف هدفه، ويتعاهده بالعناية والرعاية، لينتظر صلاح ثمرته، ويسعد بحصاد عمله، ولا يكون كمن قيل فيه:

---

[٩٢] سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٣٠).

[٩٣] أدب الإملاء والاستملاء، للسمعاني (١٠٩)، دار الكتب العلمية – بيروت.

[٩٤] سير أعلام النبلاء (٧/٢٣٠).

فرطت في الزرع وقت البذر من سفه *** فكيف عند حصاد الناس تدركه؟

وقد كان في سعي أمّ سفيان الكفاية بصدقها وصدق ولدها، فقد كفاهما الله تعالى وصدقهما، إذ صدقاه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، فعن داود بن يحيى بن يمان قال: سمعت أبي يقول: قال الثوري: لما هممت بطلب الحديث، ورأيت العلم يدرس، قلت: أي ربّ، إنه لا بد لي من معيشة، فاكفني أمرَ الرزق، وفرّغني لطلبه، فتشاغلت بالطلب، فلم أر إلا خيرًا إلى يومي هذا [٩٥].

رضي الله عن سفيان وأمه في الأولين والآخرين وفي يوم الدين.

[٩٥] تاريخ الإسلام (٤/ ٣٨٣).

(٤) أمُّ إمام دار الهجرة

مالك بن أنس رحمه الله تعالى

ما هي منزلة العلم، وما هو قدره وفضله؟

وما هو واجب طالب العلم إذا أتاه، وما هي آدابه وخلقه؟

وما الغاية التي يطلبها ذلكم الطالب من أستاذه، وما هو هدفه المنشود من جلوسه بين يدي معلمه؟

تنبئك عن كلّ ذلك أمّ الإمام مالك.

أم مالك، ما أم مالك؟ عجيبة من عجائب الدهر، وفريدة من فرائده، وأنعم بها من فريدة!

إنها خير من يضرب بها المثل في تقدير العلم والمعرفة بمنزلة العلماء وما يجب لهم من التوقير والاحترام وما يجب لطلب العلم من آداب وأخلاق، بل فوق ذلك حين تدرك من يؤخذ عنه العلم ومن يترك، وما العلم الذي يولى الأهميّة فيؤثر على غيره ويقدّم؟

وإذا كان مالك رحمه الله قد أوتي الهمة العالية في طلب العلم والصبر على الأخذ عن العلماء، فإنّ الفضل يعود إلى أمه في اختيار هؤلاء العلماء الذين يقصّرون عليه العمر ويوفّرون له الجهد ويختصرون له الوقت، ويسدّدون له الفهم.

حدّث مالك رحمه الله تعالى عن بعض توجيهات أمّه له في العلم فقال: كانت أمّي تعمّمني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلّم من أدبه قبل علمه[٩٦].

إنه يقصّ علينا في هذه الجملة القصيرة حِكَمًا ويهبُنا دررًا.

فهي — أولًا – توجّهه إلى طلب العلم، وسنّه إذ ذاك صغيرة مبكّرة، وساحات الخير يومئذ كثيرة، تختار الأمّ الذكية الفطنة أن تضع ابنها في حلبة السباق في تحصيل منازل ورثة الأنبياء، وفي ذلك دلالة على أنها تعرف فضل العلم ومنزلة أهله على كل من سواهم.

وهي – ثانيًا — إذ تختار له أن يطلب العلم، لا ترضى بأيٍّ من أبوابه وكفى، بل تختار خيره وأفضله وأعظمه، إنها تختار الفقه، والفقه لبّ العلم، وهذا برهان بعد البرهان الأول على دقة فقهها وحسن فهمها.

ثم هي — ثالثًا — تختار من بين الفقهاء الموجودين يومئذ أفضلهم فضلًا وأعلاهم كعبًا، تختار ربيعة، وربيعة هو ربيعة! إمام، مفتي المدينة، وعا لم الوقت[٩٧].

---

[٩٦] المدارك (١١٥).

وإذ تجهّزت أمّ مالك بخطّة مالك في الطلب فقد بقي أن تجهّز مالكًا نفسه لما تريده له وما يريده هو أيضًا لنفسه:

فتعمد إلى شكله الظاهر وهو أوّل ما يقع عليه منه نظر معلّمه وأترابه والنّاس، فيهشّ له المعلّم إذا رآه، ويفرح إخوانه بالجلوس إلى جواره، ويرى فيه النّاس سمت العلم والعلماء صغيرًا فتوضع له مهابة في قلوبهم ويجري له الثناء من ألسنتهم، وذلك كلّه يحفّزه للعلم ويدفعه للطلب ويعلي همته في سبيل التحصيل.

ولهذا بادرت فعمّمته بعمامة وألبسته أفضل ثيابه، وقبل ذلك لا شكّ غسّلته ووضّأته ورجّلته وطيّبته.

ولقد ظلّت تلك عادة مالك رحمه الله بعد ذلك في جميع حياته، فكان إذا أراد أن يخرج ليحدث الناس، توضأ وضوءَه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ولبس قلنسوةً، ومشط لحيته، فقيل له في ذلك، فقال: "أوقِّر به حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم"[٩٨]، وفي وصفٍ آخر لحاله يقول أحد الرواة: "كان مالك بن أنس: إذا أراد أن يجلس للحديث؛ اغتسل، وتبخَّر، وتطيَّب، فإن رفع أحد صوته في مجلسه زجره"[٩٩].

كان مالك يُعنى بلباسه عنايةً تامةً، ويَرى في ذلك إعظامَ العلم ورفعةَ العالم، ويرى أن من مروءة العالم أن يختار الثوبَ الحسنَ يرتديه ويظهر به، وأنه ينبغي ألا تراه العيون إلا بكامل اللباس حتى العمامة الجيدة، وقد كان مالك يلبس أجود اللباس وأغلاه وأجمله، قال الزبيري: كان مالك يلبس الثياب العدنية الجياد، والخراسانية والمصرية المرتفعة البِيض، ويتطيب بطيب جيد، ويقول: "ما أُحب لأحد أنعم الله عليه إلا أن يُرى أثرُ نعمته عليه". ويقول أيضًا: "أحب للقارئ أن يكون أبيض الثياب"[١٠٠].

وقد أورث مالكًا ذلك التحفّظُ والتوقيرُ للعلم تعظيمًا شديدًا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفضل العلم بعد القرآن الكريم، فكان لا يكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غيره وهو قائم، ولا يحدث به غيره وهو قائم، وسئل مرة: "أسمعت عن عمرو بن

---

[٩٧] سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٩).

[٩٨] تهذيب الأسماء واللغات (٢/٨٠).

[٩٩] تذهيب تهذيب الكمال (٨/٣٥٤).

[١٠٠] الديباج المذهب (٦٠).

دينار؟ فقال: رأيته يحدث والناس قيام يكتبون، فكرهت أن أكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم"[١٠١].

لقد مضى مالك على سنّة أمّه التي سنّتها له يوم خرج للعلم يطلبه صغيرًا، فظلت تلك حاله حتى وهو يبذل العلم كبيرًا، قال مطرف، قال مالك: "قلت لأمي: أذهب فأكتب العلم؟ فقالت: تعالَ فالبس ثياب العلم.

فألبستني ثيابًا مشمرة، ووضعت الطويلة على رأسي، وعممتني فوقها.

ثم قالت: اذهب فاكتب الآن".

هل وعيتن الدرس يا أمّهات محمد، وأنس، ومعاذ، وعليّ، ورضوان، وزيد، وأحمد؟!

وعيتن أنّ نشأكم على ما نشأتموه عليه، وأن صغيركم يشبّ على ما شاب عليه؟ وأنّ المحاسن تغرس غرسًا وخير غراسها في الصغر؟

وأنتنّ على ذكر بمن هو مالك؟ وما هي مكانته؟ وما مقدار نفعه لأمة محمد صلى الله عليه وسلّم؟ وما عدد أتباعه والمتديّنين بفقهه في طول الزمان وعرضه؟ مما يرجى معه أن يكون من أكثر النّاس تابعًا ثمّ حسنات يوم القيامة، ومثل ذلك يكون في ميزان أبيه وأمه؟ فمن تلك العاقلة التي تحرص على تحصيل مثل هذا الأجر العظيم بتربية أبنائها على مثل ما ربّت عليه أم مالك مالكًا؟

إنها لغفلة شديدة من الأم المسلمة أن تفرّط في هذا الأجر العظيم، إذا أتيحت لها الفرصة مرة وربما مرات، بعدد الأبناء والبنات اللاتي تربين هنّ الأخريات على ذلك فيربين أبناءهن عليه أيضًا.

"تعالَ فالبس ثياب العلم"، هكذا بيقين تعرف العالية بنت شريك الأزدية –وهذا هو اسم أم مالك– العلم، وثيابه، وما ينبغي لمن رامه من لباس وزينة ومظهر ووقار.

وكيف لا، ووالد مالك وأعمامه وجدّه كانوا من العلماء المحدّثين، حملة سنّة خير النبيين صلى الله عليه وآله وسلّم، فجدُّهُ مالك بن أبي عامر من كبار التابعين، وهو ممن رووا عن صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وفي مقدّمتهم عمر وعثمان وطلحة وعائشة، وكذلك كان أبوه، وإن لم يكن في منزلة جدّه من الحديث، فالأسرة — إذن – أهل علم وسنة[١٠٢].

---

[١٠١] المدارك (١٢٣/١).

[١٠٢] مالك بن أنس، (٢٦-٢٧) عبد الغني الدقر، بتصرف.

ينتهي نسب الإمام مالك إلى قبيلة يمنية هي قبيلة " ذو أصبح "، وأمه أزدية، فأبوه وأمه عربيان يمنيان[١٠٣].

وإذا كانت "**الحكمة يمانيّة**"[١٠٤]، فإن أمّ مالك قد أوتيت منها نصيبًا كبيرًا، وهذا ما يتضح بجلاء في مقالتها التي معنا.

أشرنا فيما سبق إلى ما تضمّنته هذه المقالة من اهتمام أمّ مالك بمظهر ابنها، طالب العلم الجديد الذي سيخرج الآن يغشى المجالس، ويكتب العلم الشريف، ولم تقتصر في وصاياها له على ذلك بل ضمّنتها الوصية بالآداب والأخلاق التي يجب أن يتأدب بها في مجلسه، فينبغي بعد أن أخذ الأهبة أن يسارع إلى المجلس ولا يتأخر عنه، وأن يحدد هدفه من بيته فيعلم إلى أين يقصد وماذا يريد، وذلك كله واضح في كلامها وضوح الشمس، فإذا جلس في مجلس شيخه فعليه أن لا ينشغل بغير الفائدة، ثم هي تجلّي له حقيقة تلك الفائدة فتقول: "اذهب إلى ربيعة فتعلّم من أدبه قبل علمه".

إنها تطالبه أن يضع نصب عينه أن هدفه من مجلس شيخه أمران:

١) العلم

٢) الأدب.

فينبغي أن يحرص عليهما تمام الحرص، ويهتمّ بما يجعله يحصّل ذلك تمام التحصيل، من تبكير، واقتراب، وفراغ بال، وإنصات، وانتباه ويقظة، وأن يسجل عن شيخه معارفه ومعلوماته، ويدوّن عنه كلامه وحاله، وأن لا ينشغل بشيء في مجلسه عن هدفيه هذين لأي سبب من الأسباب، إلى آخر ما يلزم لذلك التحصيل من أدوات.

ثم هي تنبّهه إلى أنّ هذين الأمرين المقصودين — العلم والأدب — ليسا سواء، فأحدهما يتقدّم على صاحبه ويشرف عليه وينبل، وهو الأدب بلا ريب، لأنه الغاية والثمرة المرجوّة من العلم، فإذا كان من المقرّر على مالك أن يحصل علم الشيخ من خلال لفظه، فعليه أن يعتني أكثر من ذلك بتحصيل أدب الشيخ من خلال لحظه، فلأجل الأدب يطلب العلم.

ووصيّة أم مالك بعد ذلك كلّه تحتمل من الفوائد ما لا يخفى على متأمّل أعطاها أذنًا صاغية وقلبًا واعيًا.

---

[١٠٣] انظر: مالك حياته وعصره – آراؤه وفقهه، (٢٧-٢٨)، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

[١٠٤] متفق عليه، رواه البخاري (٤٣٨٨) ومسلم (٥٢) عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وينبغي أن تعتني الأمّ المؤمنة بعمل مثل ذلك، توصي ابنها، وتحرص على إرشاده في سيره، وأن تتجهّز لذلك بالعلم والتخطيط من قبل مجيئه، وتتأهل بالفهم والتدريب قبل حلوله، فإذا أهل هلاله وجاء أوانه وجد فيها خير معين له على طريقه علمًا وعملًا وفهمًا ونصحًا.

ذلك لمن أرادت أن تكون شيئًا مذكورًا وأن ترث غدًا جنّة ونعيمًا مقيمًا، فتؤدي حق ربها نحو أمتها في ولدها وفي أسرتها.

لقد أدركت مالكًا رحمه الله في أيّام الطلب شدائد ووقفت دون غايته عقبات وعراقيل، منها الحاجة والفقر لضيق ذات اليد، وأمام هذا الضنك هل وقفت أم مالك عاجزة؟ كلا لقد كانت تساند مالكًا بكل شيء، حتى لقد اضطر إلى بيع قوام داره، فما أبت ولا مانعت، وتمّ ذلك فعلًا، قال ابن القاسم: "أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه"[١٠٥].

ومالك يومئذ متوفّر على الطلب يغشى المجالس ليل نهار، إن شئت رأيته عند ابن هرمز يأخذ عنه اختلاف الناس، والرد على أهل الأهواء، ويقبس من هديه وسمته، وقد مكث عنده سبع سنين في ذلك، حتى قال ابن هرمز يومًا لجاريته: "من بالباب؟"، فلم تر إلا مالكاً، فرجعت فقالت: "ما ثم إلا ذاك الأشقر"، فقال: "ادعيه فذلك عالم الناس"، وكان مالك قد اتخذ تبانًا محشوًا للجلوس على باب ابن هرمز، يتقي به برد حجر هناك.

وكان يقول: وكنت آتي ابن هرمز بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل[١٠٦].

وإن شئت رصدته ملازمًا لنافع مولى ابن عمر يأتيه نصف النهار وما تظله الشجرة من الشمس، يتَحَيَّنُ خروجَه، فإذا خرج يدَعُهُ ساعة كأنه لم يره، ثم يتعرض له فيسلم عليه ويدعه، حتى إذا دخل يقول له مالك: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبه نافع، ثم يحبس عنه مالك بعد هذا القدر من الأسئلة، فقد كان في نافع حدّة[١٠٧]، يتحايل مالك بهذه الحيل ليحصّل علم شيخه بغير أن يثير حفيظته.

وإن شئت رأيته في مجلس ربيعة أو ابن شهاب الزهري الذي لازمه مالك حتى ظنّ أقرب الناس إلى الزهري أنه مملوكه ورقيقه، روي عن مالك أنه قال: "شهدت العيد، فقلت: هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته: انظري مَن في الباب، فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك، قال: أدخليه، فدخلت، فقال:

---

[١٠٥] الديباج المذهب (٦٢).

[١٠٦] المدارك (١/١٢٠)، والطبقات الكبرى (٥/٤٦٦)، .

[١٠٧] الديباج المذهب (١١٧).

ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك! قلت: لا، قال: هل أكلت شيئا، قلت: لا، قال: اطعم، قلت: لا حاجة لي فيه، قال: فما تريد؟ قلت: تحدثني، قال لي: هات، فأخرجت ألواحي فحدثني بأربعين حديثًا، فقلت: زدني، قال: حسبك إن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ، قلت: قد رويتها، فجبذ الألواح من يدي ثم قال: حَدِّث، فحدثته بها، فردها إلي وقال: قم فأنت من أوعية العلم(١٠٨).

لقد كان بإمكان الأم الكبيرة الكريمة أن تطلب إلى مالك الانقطاع عن العلم فقد كلّف في سبيله فوق الطاقة، أو لعلها تطلب إليه أن ينقطع لفترة من الزمان قصيرة يستطيع أن يسد بالعمل أثناءها خلته ويقضي حاجته ويتنفّس نفسًا يستطيع به أن يكمل غايته ويتمّ مسيرته!

لكنها لم تفعل، لم تفعل ولو اقتضى الأمر بيع سقف البيت أو حوائطه، أو بيع البيت كلّه، كما فعلت أم تلميذه الشافعي، وكلتاهما أزديّة يمنيّة.

لقد فرّغت ولدها ليجمع علم الناس جميعًا، فاجتمع له وصارت الإمامة إليه، وضرب الناس آباط المطي إليه من كلّ مكان في الدنيا، يتمنّون عليه بذل بعض هذا العلم لهم، لقد "كان إمام الناس بعد عمر بن الخطاب زيد بن ثابت، وبعد زيد عبد الله بن عمر، وأخذ عن زيد واحد وعشرون رجلًا، ثم صار علم هؤلاء جميعًا إلى ثلاثة: ابن شهاب، وبكير بن عبد الله، وأبي الزناد، وصار علم هؤلاء كلهم إلى مالك بن أنس(١٠٩).

ولك أن تعلم بأن مالكًا استجمع الآثار وحوى فقهها، وجلس للفتيا في المسجد النبوي بإذن شيوخه وهو ابن سبع عشرة سنة، وقد قال عن ذلك: "ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، فإن رأوه لذلك أهلًا جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخًا من أهل العلم أني موضع لذلك"(١١٠).

لقد كان مالك بن أنس أحد الذين غيروا وجه العالم، وكان لأمّه النصيب الأكبر في تربيته، وهي بذلك قد أسدت إلى الأمة جميلًا طوّقت به رقاب أفرادها جميعًا، إن في جانب السنة أو في جانب الفقه.

ومن عجيب ما قرأت أنّ الإمام مالك رحمه الله لم يكن في بداية أمره على طريق العلم، بل كان أبعد ما يكون عنه، فقد كان يحبّ أن يكون مغنيًا، و يرجع الفضل إلى أمه في سلوكه طريق

---

(١٠٨) المدارك (١/١٢٢).

(١٠٩) المدارك (١/٦٨).

(١١٠) المدارك (١/١٢٧).

العلم والبعد عن طريق الانحراف والغناء هذا، وهو يحدثنا في هذا الخصوص فيقول: "نشأتُ وأنا غلام، فأعجبني الأخذ عن المغنين، فقالت أمي: يا بني، إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يُلتَفَت إلى غنائه؛ فدع الغناء واطلب الفقه.

فتركت المغنين وتبعت الفقهاء، فبلغ الله بي ما ترى"[١١١].

فهذه الأم الفاضلة العاقلة لم تكذب على ولدها وتقول له: إنه قبيح الوجه؛ إذ لم يكن مالك كذلك، بل كان وسيمًا ذا شقرة، وإنما هي أرادت أن توحي إليه بما يصرفه عن عزمه، فقالت قولتها تلك اللبقة المهذبة[١١٢].

وربما انشغل في مطلع حياته عن العلم باللهو في تربية الحمام، فيسمع كلمة تقرع أذنه وتلهب قلبه فيسارع إلى مجالسة العلماء ويلزم بعدها الفقهاء، وهو يذكر لنا شيئًا من ذلك فيقول: كان لي أخ في سنّ ابن شهاب، فألقى أبي يوماً علينا مسألة، فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي: "ألهتك الحمام عن طلب العلم!" فغضبت، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين –وفي رواية: ثماني سنين– لم أخلطه بغيره، وكنت أجعل في كمي تمرًا، وأناوله صبيانًا وأقول لهم: "إن سألكم أحدٌ عن الشيخ فقولوا: مشغول"[١١٣].

يعمل الحيلة حتى يظفر بالشيخ أكبر قدر ممكن من الوقت، وهذا من حرصه على الطلب، وبلغ من حرصه أيضًا على العلم أنه كان يمشي بعد الدرس يتبع ظلال الأشجار، ليستعيد ما تلقى ويستحفظه حتى عرف عنه ذلك، فقد رأته أخته على هذه الحالة فذكرته لأبيها فقال لها: "يا بنية، إنّه يحفظ أحاديث رسول الله"[١١٤]، وظلّ ذلك دأبه رحمه الله حتى صار إلى ما صار إليه.

بذلك ابتدأ الصبي الصغير مالك بن أنس مسيرته الطويلة في طريق العلم حتى صار إمامًا فذًّا من أئمة المسلمين، فيكون أثمن عطية، وأغلى هدية، من أمّ فاضلة تجيد التربية وتحسن التوجيه، حتى قال سفيان بن عيينة: "ما نحن عند مالك! إنما كنا نتبع آثار مالك، وننظر الشيخ إذا كتب عنه مالك كتبنا عنه، وما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موت مالك بن أنس"[١١٥].

---

[١١١] سرح العيون (١٨١)، انظر: الأئمة الأربعة للشكعة (٦، ٧).

[١١٢] الأئمة الأربعة للشكعة (٧).

[١١٣] المدارك (١/١٢٠).

[١١٤] انظر: تخريج أحاديث المدونة (٦٢)، الطاهر محمد الدرديري.

[١١٥] سير أعلام النبلاء (٨/ ٧٣).

وقال الشافعي: "إذا جاءك الأثر عن مالك فشد به، وإذا جاء الخبر فمالك النجم، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم، ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ مالك لحفظه وإتقانه وصيانته، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك"[116].

وقال أحمد بن حنبل: "مالك سيد من سادات أهل العلم، وهو إمام في الحديث والفقه، ومَن مثل مالك! متبع لآثار من مضى مع عقل وأدب"[117].

ولئن كنا قد رأينا في الإمام مالك آثار تربية أمّه له صغيرًا من رعاية حسن هندامه في الجلوس لمجلس العلم، وتوقيره للعلم وأهله وتجمله له وتطييبه لأجله وحفظه لجناب أهل العلم، فيمكننا أن نلمس في صفاته العظيمة الأخرى بعض آثار هذه الأم الكريمة، وقد كان الإمام قوي الحفظ، عظيم الصبر، شديد الذكاء قويّ الفراسة، عظيم المهابة والوقار.

رحم الله مالكًا وأمّه وبلغنا على طريقهما آمالنا في أمهات وأبناء المسلمين.

---

[116] انظر: مالك حياته وعصره (٨٨)، منازل الأئمةالأربعة (١٧٣).

[117] انظر: مالك حياته وعصره (٨٨).

(٥) أمّ الإمام محمد بن إدريس الشافعي

رحمهم الله

لا يخفى فضل الإمام الذي تتناوله السطور التالية بالحديث، فقد كان رحمه الله كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن كما أخبر بذلك تلميذه الأثير العالم الموسوعي أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى[١١٨]، وكيف يخفى وهو الحجّة فى العلم كلّه، وما من صاحب فنّ إلا ويعرف له قدره؟ فهو حجّة في التفسير والحديث وعلومهما، حجّة في الفقه والأصول وسائر العلوم الشرعيّة، حجّة في اللغة أدبًا ونحوًا وبلاغة وشعرًا وغيرها، حجّة في سائر العلوم التي ظهرت في عصره، كما شهد بذلك تلميذه العالم الرحّالة إسحاق بن راهوية، وقال: ما ظننت أن الله خلق مثل هذا، والله لم تر عيناي مثله[١١٩].

فلا عجب عدّه العلماء مجدّد الدين في القرن الثاني الهجري، وهذا حقّه رحمه الله وأجزل له المثوبة، ونضيف على ذلك أنّه كان مؤسس علوم عظيمة بنيت وشيدت على أصول بيّنها هو ووضعها.

هذا الإمام هو محمد بن إدريس الشافعي الذي لا تخفى مناقبه ولا تغيب فضائله.

وقد شاء الله أن ينشأ الإمام الشافعي يتيمًا، فلم تمض على ولادته غير سنتين حتى توفّي أبوه، وبقي في كفالة أمّه التي ما انفكّت تسعى جاهدة في تربيته وتعليمه بهمّة ترى كبريات الأمور صغارًا، وقد نذرت الأم العاقلة ابنها للعلم تجوب به البلدان وتقدمه إلى الشيوخ وتلتمس له مكانًا في الحلقات، حتى صار الشافعي هو الشافعي الذي ملأ طباق الدنيا علمًا، ولنتبع أثرهما من مسقط رأس الشافعي لنر ماذا فعلا، وماذا حصلا، وإلى أين وصلا؟

ولد الشافعي رحمه الله في غزة[١٢٠]، وكان هذا في عام ١٥٠ هـ، وكان أبو الشافعي من أهل المدينة فحدث فيها بعض ما يكره فخرج إلى عسقلان، ولما توفي أبوه وعمره سنتان انتقلت به تلك الأمُّ الفاضلة العاقلة إلى مكة، ولماذا مكة؟

---

[١١٨] منازل الأئمة الأربعة (٢٢٢).

[١١٩] آداب الشافعي ومناقبه (٣١).

[١٢٠] انظر: توالي التأسيس، (٥١،٥٢)، ومنازل الأئمة الأربعة، (٢٠١).

ذكروا أنها خافت على نسبه المطّلبي القرشيّ الضيعة بين اليمنيين الذين يمثّلون أصول أهل عسقلان فآوته إلى حيث يصان ولا يضام وكانت أولى البلاد بذلك أم القرى مكة، وأيضًا مكة يومئذ أرض العلم ومهبط العلماء، فبها وفرة التابعين وآثار الصحابة الباقية وعلومهم الخالدة.

وثمة رؤيا رأتها أمّه أثناء حملها به — فيما يذكرون — تبشّر بمستقبل له في مكة[١٢١]، فلعلّ ذلك إن صحّ يكون سببًا ثالثًا.

وقد ألزمته أمّه حفظَ القرآن الكريم فأتمه وهو ابن سبع سنين، ثم أقبل على معين السنّة ينهل منها فحفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين، ثم أخذ يطلب العلم في مكة حتى أُذن له بالفتيا وهو دون عشرين سنة[١٢٢].

ذلك شيء مما ينوّه بفضل تلك الأمّ العظيمة، عرفت الطريق الصحيحة ووضعت ابنها عليها، وألزمته سلوكها، وقد دلّها على ذلك فضل عقل لديها وحكمة، ولعلها كانت ألمت بشيء من العلم الذي لم يكن نساء ذلك الزمان يخلون منه، ويؤيد ذلك ما ذكر من أنها شهدت عند قاضي مكة في قضيّة هي وامرأة أخرى، فأراد القاضي أن يفرق بينهما –امتحاناً– فقالت له أمّ الشافعي: ليس لك ذلك؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ [البقرة ٢٨٢] فسكت القاضي[١٢٣].

وهذا يدل على فضل عقل وعلم.

قال التاج السبكي بعد نقل هذه الحكاية: وهذا فرع حسن واستنباط جيد ومنزع غريب، والمعروف في مذهب ولدها رضي الله تعالى عنهما إطلاق القول بأن الحاكم إذا ارتاب بالشهود استحب له التفريق بينهم، وكلامها رضي الله تعالى عنها صريح في استثناء النساء للمنزع الذي ذكرته، ولا بأس به[١٢٤]، قال: وكانت أم الشافعي باتفاق النقلة من القانتات العابدات، ومن أذكى الخلق فطرة، ثم ذكر الحكاية[١٢٥].

وقد هداها ذلك إلى وضع ولدها في الطريق الصحيح، تؤمّل له مستقبلًا مزهرًا، وقد كان لها ما أمّلت، وفوق ما أمّلت.

---

[١٢١] انظر: تهذيب التهذيب (٩/ ٢٦).

[١٢٢] انظر: آداب الشافعي ومناقبه (٣١).

[١٢٣] انظر: إعلاء السنن (١٥/٣٠٨).

[١٢٤] انظر: الطبقات (١/٢٨٥).

[١٢٥] انظر: الطبقات (١/٢٨٥)، وذكرها الحافظ في الفتح أيضًا عن الشافعي عن أمه: (٥/١٩٦).

حملت الشافعي أمه وهو ابن سنتين وأتت به مكة تعرّف أهله به، وكانت تتردد عليهم بعد ذلك تعرّفه بهم وتصل ودّهم وتراوح لأجل ذلك بين مكة وعسقلان، حتى إذا بلغ الشافعي عشر سنين جهزته وأرسلته إلى مكة، ليكون عند أهله ويطلب العلم في بلد ذويه وذلك بعد ما بلغ من العلوم شأوًا.

وقد نشأ الشافعي رحمه الله فقيرًا، فقد كان أبوه قليل ذات اليد[١٢٦]، ومات ولم يترك لهم شيئًا ذا بال، حتى إنّ الشافعي حفظ القرآن في الكُتّاب لا يعطي معلّمه أجرًا على تحفيظه، فاكتفى منه المعلّم بعمل العريف؛ ينوب عن المعلّم على الصبيان إذا قام لغداء أو راحة أو نحوهما، وبعد ذلك لما جلس في حلق أهل العلم كان يذهب إلى ديوان الإمارة يستوهب الموظفين الأوراق التي هم في غنى عنها ليكتب على ظهورها ما يتلقاه في حلقات العلم من دروس.

قال الحميدي، قال محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: وهو يحكي شيئًا من ذلك فيقول: "كنت يتيمًا في حجر أمي فدفعتني في الكتاب، ولم يكن عندها ما تعطي المعلم، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها، ولم يكن عند أمي ما تعطيني أن أشتري به قراطيس قط، فكنت إذا رأيت عظمًا يلوح آخذه فأكتب فيه، فإذا امتلأ طرحته في جرة كانت لنا قديمة، قال: ثم قدم والٍ على اليمن فكلّمه لي بعض القرشيين أن أصحبه، ولم يكن عند أمّي ما تعطيني أتحمّل به، فرهنت دارها بستة عشر دينارًا، فأعطتني فتحملت بها معه، فلما قدمنا اليمن استعملني على عمل فحمدت فيه، فزادني عملًا فحمدت فيه، فزادني عملًا وقدم العمّار مكة في رجب فأثنوا عليّ، فطار لي بذلك ذكر، فقدمت من اليمن، فلقيت ابنَ أبي يحيى، فسلمت عليه فوبخني، وقال: تجالسونا وتصنعون وتصنعون، فإذا شرع لأحدكم شيء دخل فيه، أو نحو هذا من الكلام، قال: فتركته، ثم لقيت سفيان بن عيينة، فسلمت عليه فرحب بي، وقال: قد بلغتنا ولايتك، فما أحسن ما انتشر عنك وما أديت كل الذي لله عليك، فلا تعد، قال: فكانت موعظة سفيان إياي أبلغ مما صنع بي ابن أبي يحيى"[١٢٧].

لله ما أعظم جهاد هذه الأمّ الكريمة، إذ تصرّ على تعليم ولدها مع فقره، ثم ترهن له داره حتى يضرب في آفاق الأرض مرتحلًا.

---

[١٢٦] توالي التأسيس (٤٩).

[١٢٧] انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤١٣)، وآداب الشافعي ومناقبه، (٢١).

وقد ساعدتها نجابة الشافعي في تخفيف بعض الأعباء المالية كما قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: كنت أنا في الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كنت – ويكتبون أئمتهم —يعني ألواحهم وكتبهم– فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم – قد حفظت جميع ما أملى، فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك شيئاً[١٢٨].

لقد اجتمعت للشافعي إذًا ثلاثة من أسباب العلوّ؛ **النسب الشريف** الذي يجعله يرمق المعالي ويسعى إليها ويترفّع على سفاسف الأمور، **واليتم** الذي يجعله عصاميًّا يعتمد على ذاته ويؤسس بنفسه لمستقبله، لا ينتظر أبًا ولا جدًّا، **والفقر** الذي يدفع بهمّة المرء العزيز نفسًا إلى الخروج منه والتمسك بأسباب ذلك.

وهذه الثلاثة مجتمعة – مع صدق طوية وعزيمة قوية – هي التي جعلت من الشافعي ذلك العلم الأشمّ الذي سمعت به الدنيا، فما ضرّه انتفاء الشكليّات مع توفّر الجوهر، بل إنه ليوظف هذه الشكليات التي تيئس آخرين لتحقيق قصده وصقل عزمه، وهو صاحب الأبيات الحكيمة الذائعة في هذا المعنى:

عليّ ثياب لو يباع جميعها ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو تقاس بمثلها ... نفوس الورى كانت أعز وأكبرا

وما ضر نصل السيف إخلاق غمده ... إذا كان عضباً حيث وجهته برى

في هذه التربية المثلى نشّأت الشافعي أمّه، كأحسن ما يكون، فرحمها الله من أمّ ووالدة، لقد قصرت حياتها عليه ولم تتزوج، ووضعت لتربيته طريقًا واضحةً لم تختلط بغيرها، وواصلت السير فيها بعزيمة لا تكلّ، واختارت له من عظيم الأمور أعلاها ومن المنازل الكريمة أفضلها وأسماها، وقصدت به منابع العلم في بحورها حتى شرب وشبع وخرج الريّ منه يفيض على العالمين ويملأ طباق ما بين الخافقين.

ظلّت أم الشافعي رحمهما الله تمدّه طوال طريقه بنصائحها المفيدة العاقلة وترشده إلى أقوم الطرق في مشواره بما أوتيت من عقل وحكمة وفهم حسن.

وظلّ الشافعي يقبس من نبلها وأدبها وحسن فهمها إلى أن بلغ ما بلغ.

فلله درهما من مفيد ومستفيد ومن مؤدّب ومتأدب!

---

[١٢٨] معجم الأدباء (٦/ ٢٣٩٥).

تذكر بعض الكتب أمّ الشافعي فتنسبها هي الأخرى – كأبيه – إلى آل البيت الأطهار، وتعرّفها بأنّها هي فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما رواه الحاكم أبو عبد الله الحافظ[١٢٩]، لكن الجمل في حاشيته وصف هذا القول بالشذوذ، ويرجّح القول الثاني أنها كانت أزدية يمنية، واسمها فاطمة بنت عبد الله الأزدية، وهذا هو القول الصحيح المشهور الذي انعقد عليه الإجماع؛ إذ كل الروايات التي رُويت عن الشافعي في نسبه تذكر على لسانه أن أمَّه من الأزد[١٣٠].

آخر ما وقفت عليه من حياة أمّ الشافعي أنها كانت على قيد الحياة وقت رحلة الشافعي إلى اليمن، ليلي بعض الأعمال عليها، وكان يتردد على المدينة بين الفينة والأخرى، وإبّان ذلك كانت محنته حين اتهم بأنه يناصر العلويين على بني العبّاس.

وهذه المحنة كانت سنة ١٨٤ هـ، وعمر الشافعي وقتها في أواسط عقده الثالث، كان له من العمر أربعًا وثلاثين سنة.

ولم أقف على ما يفيد حياة أم الشافعي بعد هذا الوقت، أجزل الله مثوبتها.

وفي حياة والدة الشافعي – تلك التي أهدت للأمة إمامًا عظيمًا، ملأ سمع الأرض علمًا – دروسٌ عظيمةٌ لذات اللّب الحصيفة، منها:

- من توفّرت بعد موت زوجها على تربية أبنائها الأيتام فأحصنت نفسها بالوسائل الشرعيّة وأوصلت أبناءها إلى الدرجات المرضيّة قد قدّمت من جليل الأعمال وعظيم الأفعال ما تستحق عليه عظيم الشكر وجزيل الثناء.
- خير السبل التي يتوجّه إليها المرء سبيل خدمة الدين، فهو أنفعها وأبقاها وأثمرها.
- الصعوبات في طريق عالي الهمّة — ولدًا أو والدة — هي محفّزات لا عقبات.
- بعض بصيرة الأمّ الحريصة على استبانة الطريق بل أعظمها هي في العلم فلو تزوّدت بشيء منه كانت أوفر بصيرة وأحظ عقلًا وحكمة.
- من الخير أن لا تغلّب الأمّ عاطفة الأمومة في حبّ بقاء ولدها إلى جوارها على مصلحته العلميّة، لا سيما إذا اقترنت بذلك مصلحة الأمة ونفع المجتمع المسلم.

---

[١٢٩] انظر: تاريخ دمشق (٥١/٢٧٥).

[١٣٠] انظر: حاشية الجمل (١/٢٣)، والمجموع (١/١٤)، ومنازل الأئمة الأربعة، (٢٠١)، وللتفصيل راجع: الدرّ النّفيس في بيان نسب إمام الأئمة محمد بن إدريس الشافعي، للحموي، ط. الريان – بيروت.

- كثير من الأئمة الكبار الكرام ربتهم أمهاتهم وكانوا قدوة لأجيال متكاثرة، فلا معنى لما يقوله النّاس على سبيل الانتقاص: ربّته امرأة!

ومن الله العون، وعليه قصد السبيل.

(٦) أمّ إمام أهل السنّة

أحمد بن حنبل رحمهم الله

ومثل سيرة أمّ الإمام الشافعي رحمه الله تعالى سيرة أمّ تلميذه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، في أنها قعدت على رعاية ولدها، ولم تتزوج بعد أبيه الذي فارقهما، فنشأ أحمد يتيمًا في كنَف أمه، التي ربته ونشأته كأحسن ما يكون، حتى صار أحمد هو أحمد!

وتتشابه سيرة الأمّين والولدين في:

- ثكل الزوج.
- يتم الابنين، فقد ولد الشافعي وتلميذه يتيمين، ويا له من فخر لهما:

حَسْبُ اليتيم سعادةً أنَّ الذي ... نشرَ الهُدَى في الناسِ عاشَ يَتيما.

- حسن الرعاية والتوجيه للعلم والتقدم نحو العلو والازدياد من الخير.
- وحدة الابنين، والله أعلم، إذ لم أطلع على وجود إخوة لواحد من الإمامين.
- تفضيل الأمّين القيام بتربية الولد على الزواج.
- تخريج إمام عظيم له شأنه وفضله على الأمة بأسرها، في مجالي السنّة والفقه، معًا.
- الفقر والحاجة وقلة ذات اليد.
- الهمة العالية لدى الأمهات والأبناء.

إذن تشابهت ظروف حياة الأستاذ والتلميذ أشد التشابه وأقواه، ولنرجع مع حياة أحمد خطوة إلى الوراء:

كان محمد بن حنبل –والد الإمام أحمد– أحد قادة الجيش في مدينة مرو، فقدم إلى بغداد، وكان شابًّا حول الثلاثين، وكان تزوج من صفية بنت ميمونة بنت عبدالملك كما قال أبو عبد الله ابن بطة: كانت أم أبي عبد الله أحمد بن حنبل شيبانية، واسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد

الملك الشيباني من بني عامر، كان أبوه نزل بهم وتزوج بها، وكان جدها عبد الملك بن سوادة بن هند الشيباني من وجوه بني شيبان، وكان ينزل عليه قبائل العرب فيضيفهم[١٣١].

وقد توفّي محمد وله من العمر بضع وثلاثون سنة، وترك زوجه وكانت سنها دون سنّه[١٣٢]، وكان أحمد إذ ذاك صغيرًا لا يدرك شيئًا، فقد سئل عن أبيه وجدّه: هل رآهما؟ فنفى ذلك، كم كانت سنه حينئذ؟ يرجح البعض أنه كان يبلغ ثلاث سنوات.

ويحدّثنا أحمد عن ذلك فيقول: وجيء بي حملًا من مرو، وتوفي أبي محمد بن حنبل وله ثلاثون سنة، فوليتني أمي[١٣٣].

لم ترغب صفية بالزواج بعد وفاة زوجها، واختارت أن تتوفّر على صيانة ولدها أحمد تملأ عليه حياته حنانًا وتغمرها أنسًا.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى شيء يتعلّق بهذه النقطة التي تكررت معنا مرارًا، ألا وهي عزوف الأرملة عن الزواج وتوفُّرها على صون أيتامها، فلا شك أنّ تربية الأولاد عبء مشترك يحمله الزوجان معاً، وإنه لقدَر طيب أن يشبّ الأولاد في حضانة أبويهم مستمتعين بدفء العاطفة وحسن الكفالة.

لكن الريح لا تهبّ رخاء دائمًا، وطبيعة الحياة الابتلاء بالخير والشر، فقد يفقد الأولاد الكافل الحاني، فتبقى الأم أيمًا والأولاد يتامى، وتوفُّر الأم على صون أولادها ـ والحالة هذه ـ من أجلّ القربات التي تبلغها أعلى الدرجات، إن شاء الله تعالى، والجميلة التي تهمل زينتها انشغالًا بأولادها حتى يتغير وجهها امرأة مقدورة الفضل مرموقة المكانة، لكننا نتساءل: أكلّ النساء مطالبات بهذه التضحية؟ أظن أن هناك ملابسات كثيرة تحدد موقف الأيم ومصير يتاماها، منها سنّ الزوجة، وغناها أو فقرها، وأعمار الأولاد، ووضع المتقدم إليها الديني والاجتماعي، فقد يتقدم إليها قريب أو تقيّ يحسن معاملة الأولاد.

ولذلك نترك للزوجة التي فقدت رجلها أن تتصرّف بما يحقّق لها ولأولادها المستقبل الأطيب.

عندما قتل جعفر الطيّار في معركة مؤتة، وكان شابًّا حول الثلاثين، تاركًا زوجته وأولاده لم تمض فترة طويلة حتى تزوجت المرأة أبا بكر الصديق، وحسنًا فعلت، وقد رعى رضي الله عنه أولادَها خير رعاية.

---

[١٣١] مناقب الإمام أحمد (٢١) لابن الجوزي.

[١٣٢] انظر: الأئمة الأربعة (١٤، ١٥).

[١٣٣] انظر: مقدمة العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله (١/ ٥١)، وصي الله بن محمد عباس.

ويحكي التاريخ أن عاتكة بنت زيد، وكانت صحابية أديبة ذات جمال وكمال ورأي، قتل زوجها عبد الله بن أبي بكر، فتزوجها من بعده عمر بن الخطاب، فلما قتل عمر رضى الله عنه تزوجها الزبير بن العوام، فلما قتل الزبير بوادي السباع في الفتنة الكبرى تزوجها الحسين بن عليّ رضى الله عنه، فلما قتل بكربلاء كانت أول من رفع خدّه عن التراب، ثم ترّملت بعده فلم يسع إليها أحد.

ومن الطرائف أنّ عبد الله بن عمر كان يقول: من أراد الاستشهاد فليتزوج عاتكة، لقد قتل أزواجُها كلُّهم، ولا علاقة لها بهذه المصاير، وإنما هي أقدار، وتحفظ لها كتب الأدب هذه الأبيات في رثاء أول زوج لها، عبد الله بن أبي بكر.

آليت لا تنفك عيني حزينة عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

فلله عينًا من رأى مثله فتى أكر وأحمى في الهياج وأصبرا

إذا أشرعت فيه الأسنة خاضها إلى الموت حتى يترك الموت أحمرا

إنها عاطفة صادقة بيد أنها موقوتة، وللحياة تيّارها الدافق المطرد، والإسلام لا يقوم جندًا أمام غرائز الفطرة وطبائع الرجال والنساء.

المشكلة أن الناس يريدون إخضاع الدّين لتقاليدهم الخاصة، ولو كانت هذه التقاليد في عكس اتجاه السلف الأول وفطرتهم السليمة[١٣٤].

إنّ الأحاديث الواردة في فضل الأرملة التي تعزف عن الزواج وتتوفّر على صون أيتامها ضعيفة ولا تثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

وليس معنى ذلك انتفاء الفضل عن عملها فأجر عمل الصالحات والصبر على الضرّاء ثابت عامّ في جميع المؤمنين، كما قال الله سبحانه: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، وقال عز وجل: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا}.

فهذه الأجور العامة العظيمة تكتب لها إن شاء الله، إلى جوار الفضل الثابت في الأحاديث الصحيحة بشأن ثواب كافل اليتيم فالأمّ نعم الكافل، وعسى الله أن يرزقها ذلك الفضل

---

[١٣٤] قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة (١٢٠،١١٩)، للشيخ محمد الغزالي، بتصرف.

الخاصّ الذي وردت به هذه الأحاديث الضعيفة التي يتعلّق بها ويرجوها كثيرٌ من الأرامل في عملهنّ، عسى ذلك أن يتحقق لهنّ، نعم فلهنّ أن يرجين ذلك لكن من غير اعتقاد ثبوته عنه صلى الله عليه وسلم.

تولت أم أحمد رعايته بعد وفاة أبيه وربته تربية حسنة، يغمرها حب جمّ وعطف بالغ، ولندع أحمد يحك لنا بنفسه بعض دلائل ذلك فيقول كما ينقل عنه ابنه صالح: كانت أمي قد ثقبت أذني، قال أحمد: فكانت أمي رحمة الله عليها تصير فيهما حبتين من لؤلؤ، فلما ترعرعت، نزعتهما، فدفعتهما إليّ فبعتهما بنحو من ثلاثين درهمًا[١٣٥].

إنّه نوع من الدّلال المعبّر عن فرط الحب والحنان.

وكانت أمّ أحمد رحمة الله عليها حريصة على تعليمه العلم رغم ضيق ذات يدها، فكانت ترسله في الكتّاب، ليتعلّم الخط ويحفظ القرآن.

وكانت آثار النجابة والفضل والصلاح تبدو في أحمد من صغره، فقد روى ابن الجوزي بإسناده عن أبي عفيف قال: كان أحمد في الكتاب معنا وهو غليم نعرف فضله، وكان الخليفة ينزل بالرقة ومعه الجند، فيكتب أولئك الجند إلى نسائهم بأحوالهم، فلا يرضى النساء بغير أحمد يقرأ لهنّ ما كتب به أزواجهن إليهنّ، فكنّ يبعثن إلى معلم المكتب: ابعث إلينا بأحمد بن حنبل، وذلك ليقرأ لهم وليكتب لهم جواب كتبهم، فربما أملوا عليه الشيء من المنكر، فلا يكتبه لهم.

وقال أبو سراج ابن خزيمة: فكان إذا دخل إليهن لا يرفع رأسه ينظر إليهن، فقال أبي —وذكره– ، فجعل يعجب من أدبه وحسن طريقته.

وقال: أنا أنفق على ولدي وأجيئهم بالمؤدبين على أن يتأدبوا فما أراهم يفلحون، وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم انظر كيف يخرج؟ وجعل يعجب[١٣٦].

لقد بلغ أحمد في الأدب — بفضل تربية أمّه – هذا المبلغ الذي يحسده عليه الناس؛ إذ جمع منه ما لم يجمعه صغير في كنف والديه، وكان وهو صبي محل ثقة جميع من يعرفونه من الرجال والنساء.

غرست صفيّة في ولدها أحمد محبّة العلم، حتى إن هذا الغراس ليقوى في نفسه ويشتدّ فيغلب عاطفتها هي وهي من غرسته!

---

[١٣٥] انظر: مقدمة العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله (١/ ٥١).

[١٣٦] مناقب أحمد بن حنبل (٣١) لابن الجوزي.

ذكر الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وأدب السامع عن تبكيره في طلب العلم، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمهم الله قال: سمعت أبي يقول: "كنت ربما أردت البكور إلى الحديث، فتأخذ أمي ثيابي وتقول: حتى يؤذن الناس، حتى يصبحوا، وكنت ربما بكرت إلى مجلس أبي بكر ابن عياش وغيره"[١٣٧].

لقد كانت أمه تشجعه على طلب العلم والسعي إليه، لكنها إذا رأته اشتدّ في أخذ نفسه بما يرهقها رشدته ودعته إلى الرفق بنفسه.

لقد بذلت أمّ أحمد الكثير من أجله، وقدمت لابنها راضية كلّ ما يضمن له كامل الراحة لأجل أن يطلب العلم ويتوفّر عليه، وإذا عرفنا أن الإمام أحمد لم يتزوج قبل سنّ الأربعين أدركنا أن السبب في ذلك هو ما هيأته له أمه من سبيل العناية وغامر الاهتمام[١٣٨].

وكان والد أحمد قد ترك له بيتًا في بغداد يسكنه وبيتًا آخر يغل غلة ضئيلة، فعاش رحمه الله فقرًا شديدًا في أوّل حياته، وعليه نشأ، ومنه تعلّم، وبه مع العلم والفهم تزهّد.

ولئن ولد أستاذه الشافعي بغزة ونشأ بمكة، فقد ولد أحمد ببغداد، وبها نشأ، حتى إذا أتم حفظ القرآن وعلم اللغة اتجه إلى الديوان ليتمرّن على التحرير والكتابة، ولقد قال في ذلك: كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب، ثم أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة[١٣٩].

وبعد ذلك ابتدأ الإمام أحمد في طلب الحديث من شيوخ بغداد فكان أول من كتب عنه الحديث، أبو يوسف، قال: وطلبت الحديث وأنا ابن ست عشرة سنة، ومات هشيم وأنا ابن عشرين سنة، وأول سماعي من هشيم سنة تسع وتسعين ومائة.

ثم رحل أحمد في طلب الحديث إلى الكوفة، والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام، والجزيرة وكتب عن علماء كل بلد[١٤٠].

وهكذا كانت الأم العظيمة تحثّه على العلم وتساعده عليه، رغم فقرهم، تتاجر به مع ربها عز وجل، وكان هو رضي الله عنه يدرك ما بهم من حال فيعمل جهده على توفير ما يقدر على توفيره من مال ولو أداه ذلك إلى مضاعفة الجهد وضنى الجسم، قال عبد الله بن أحمد: خرج أبي إلى طوس ماشيًا وخرج إلى اليمن ماشيًا ليلقى عبد الرزاق الصنعاني، وقال أبي: ما كتبنا عن

---

[١٣٧] الجامع لأخلاق الراوي وأدب السامع (١/١٥١).

[١٣٨] انظر: الأئمة الأربعة (١٤، ١٥).

[١٣٩] مناقب أحمد بن حنبل (٣١) لابن الجوزي.

[١٤٠] انظر: مقدمة العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله (١/ ٥١).

عبد الرزاق من حفظه شيئًا إلا المجلس الأول، وذلك أنا دخلنا بالليل فوجدناه في موضع جالسًا، فأملى علينا سبعين حديثًا، ثم التفت إلى القوم فقال: لولا هذا ما حدثتكم يعني أبي[١٤١]، ولعله لمس في أحمد أدبًا وسمتًا حملاه على هذا القول والفعل، والله أعلم.

وربما كانت تمنع أحمد قلة ذات اليد هذه من الرحلة، ويصدّه ضيق المعيشة عنها مع رغبته الشديدة فيها، قال رحمه الله: ولو كان عندي خمسون درهمًا كنت خرجت إلى جريرابن عبد الحميد إلى الري، فخرج بعض أصحابنا، ولم يمكني الخروج لأنه لم يكن عندي، وقال – مرة –: لو كانت عندي نفقة لرحلت إلى يحيى بن يحيى يعني الأندلسي، بالأندلس[١٤٢].

وقد لقي الإمام في رحلاته تلك عناء كثيرًا، فلم تكن الطرق معبّدة ولا المراكب مهيّأة، وإن كانت، فخلو اليد من الدراهم يحول دون الركوب على الرواحل والمراكب، ثم إنه طبع على عزّة النفس فكان لا يقبل من أحد هبة ولا عطيّة، ويترفع عن الجوائز والأعطيات ويرضى لنفسه بالكسب الحلال بعرق الجبين، فكان يكري نفسه مع الجمالين، روى أبو نعيم في الحلية عن إسحاق بن راهويه يقول: لما خرج أحمد بن حنبل إلى عبد الرزاق، انقطعت به النفقة فأكرى نفسه من الجمالين إلى أن وافى صنعاء، وقد كان أصحابه عرضوا عليه المؤاساة، فلم يقبل من أحد شيئًا.

وكذا روى بإسناده عن عبد بن حميد يقول: سمعت عبد الرزاق يقول: قدم علينا أحمد بن حنبل ههنا، فقام سنتين إلا شيئًا، فقلت له: يا أبا عبد الله، خذ هذا الشئ فانتفع به فإن أرضنا ليست بأرض متجر ولا مكسب، وأرانا عبد الرزاق كفه ومدها فيها دنانير، قال أحمد: أنا بخير، ولم يقبل مني[١٤٣].

وروى أيضًا عن علي بن الجهم قال: كان لنا جار فأخرج إلينا كتابًا، فقال: أتعرفون، هذا الخط؟ قلنا: نعم، هذا خط أحمد بن حنبل، فقلنا له: كيف كتب ذلك؟ قال: كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة، فقصدنا أحمد بن حنبل أيامًا فلم نره، ثم جئنا إليه، لنسأل عنه، فقال لنا أهل الدار التي هو فيها، هو في ذلك البيت، فجئنا إليه والباب مردود عليه، وإذا عليه خلقان، فقلنا له، يا أبا عبد الله، ما خبرك؟ لم نرك منذ أيام، فقال: سرقت ثيابي، فقلت له: معي دنانير، فإن شئت خذ قرضًا وإن شئت صلة، فأبى أن يفعل، فقلت: تكتب لي بأخذه؟ قال:

---

[١٤١] تاريخ مدينة دمشق (٣٦/١٧٣، ١٧٤).

[١٤٢] سير أعلام النبلاء (١٠/ ٥١٤).

[١٤٣] تذهيب تهذيب الكمال (١/١٩٢).

نعم، فأخرجت دينارًا فأبى أن يأخذه، وقال: اشتر لي ثوبًا واقطعه بنصفين، فأومى أنه يأتزر بنصف، ويرتدي بالنصف الآخر، وقال: جئني ببقيته، ففعلت وجئت بورق وكاغد فكتب، لي فهذا خطه[١٤٤].

وبهذه النفس الأبية وبكدّ العيش وضنك المعيشة متوكلًا على الله، خرج أحمد في سبيله يجوب البراري والقفار، يفترش الأرض الجرداء ويرتدي برداء السماء، يتوسد باللبن والأحجار، يلتقي المشايخ ويتلقى منهم الحديث، حتى صار إمامًا يقتدى به، وحجة يشار إليه بالبنان، ويرحل إليه للأخذ والسماع[١٤٥].

وقد حصلت له بهذه الرحلات الكثيرة ذخيرة كبيرة ومجموعة كثيرة من الأحاديث والآثار، فقال عبد الله بن أحمد: قال لي أبو زرعة: أبوك يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب، وقد ذكر ذلك الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء، ثم قال: فهذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبد الله، وكانوا يعدون في ذلك المكرر والأثر وفتوى التابعي وما فسر، وإلا فالمتون المرفوعات القوية لا تبلغ عشر معشار ذلك[١٤٦].

وذكر الذهبي أيضًا عن أبي زرعة قال: حزرت كتب أحمد يوم مات، فبلغت اثني عشر حملًا وعدلًا ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان، ولا في بطنه حدثنا فلان، كل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلب[١٤٧].

وقد كان أحمد رحمه الله بارًّا بأمّه كلّ البر، عارفًا بفضلها، حافظًا لجميلها، ويكفي أن نقرأ ما ذكره ابن الجوزي عن صالح أنه سمع أباه أحمد يقول: خرجت إلى الكوفة فكنت أبيت وتحت رأسي لبنة، فحُممت –أي: أصابتني الحمّى–، فرجعت إلى أمّي ولم أكن استأذنتها[١٤٨].

إنّه ليعتقد – لشدّة برّه بها وحرصه على رضائها– أنّ الحمى أصابته لعدم استئذانه منها، فكأنه لم يحصّل بركتها لما خرج، ولهذا عاد أدراجه إليها يستأذنها ويستشفي بدعواتها وصِلتها.

---

[١٤٤] حلية الاولياء (١٧٩/٩).

[١٤٥] انظر: مقدمة كتاب العلل ومعرفة الرجال لأحمد رواية ابنه عبد الله (١/ ٥١).

[١٤٦] سير أعلام النبلاء (١١/ ١٨٧).

[١٤٧] سير أعلام النبلاء (١١/ ١٧٧).

[١٤٨] سير أعلام النبلاء (١١/ ١٨٥).

فحسب هذه الأم رحمة الله عليها ذلك الابن البارّ، وذلك الإمام العظيم، وحسبها أنها أهدت إلي دُنيا المؤمنين وعالم الموحدين إمامَ أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله، ورضي الله عنها وعن ولدها، وسلام عليهما في الآخرين.

(٧) أمّ أمير المؤمنين في الحديث

محمد بن إسماعيل البخاري رحمهم الله

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري هو إمام الدنيا، وأمير المؤمنين في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو صاحب أصحّ كتاب في السنّة على وجه الدنيا منذ أن كتبت وسيظلّ كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فمن تلكم الأم التي ولدت هذا العظيم؟ لا ريب أنّ هذه المناقب الكبيرة التي أوتيها الابن فيها شيء من الشبه إلى أبيه وأمّه، أو برزت نتيجة بعض الجهد منهما، أو لهما من الأثارة في الدين والفضل ما أهّلهما لأن يكون البخاري ابنًا لهما وأن يكونا هما أبويه.

وكذلك كان الواقع والحقيقة، فالبيت الذي ولد فيه البخاري كان بيت علم وفضل وتربية.

كان إسماعيل – والده – من العلماء المحدّثين، اشتغل بالحديث ورحل إلى البلدان في طلبه وأثرت له رواية عن مالك بن أنس وحماد بن زيد، كما رأى عبد الله بن المبارك وصافحه بكلتا يديه، فعن إسحاق بن أحمد بن خلف، أنه سمع البخاري يقول: سمع أبي من مالك بن أنس، ورأى حماد بن زيد، وصافح ابن المبارك بكلتا يديه[١٤٩].

وكان إسماعيل من المعروفين بحسن السمت والعمل بالورع، وكان يعمل في التجارة واستعمل فيها علمه وورعه فخلص ماله وطاب.

لم تطل الحياة بإسماعيل مع ابنه محمد إذ فارق الحياة ولولده بضع سنين، ولما كان على فراش الموت دعا ابنه البخاري فقال له: "لقد تركت لك ألف ألف درهم، لا أعلم منها درهمًا من حرام، ولا درهمًا من شبهة"[١٥٠]، ولنا أن نتخيّل العلم الذي حصّله إسماعيل والد البخاري ليؤكّد هذا التأكيد، لا على أنه لم يدخل ماله درهم حرام فحسب، بل على أنه لم يدخله درهم فيه شبهة!

وحريّ بنا أيضًا أن نستلهم هذه المقولة ونتعرّف على أهميتها في ضمن أسباب تفوّق البخاري رحمه الله تعالى، فالمال الحلال الصافي يصنع المعجزات في الأبدان والأنفس على السواء.

ثمّ إنّ هذا المال كلّه كان قد رصده الوالد لتعليم أولاده العلم، وقد أنفق المال في هذه السبيل فعلًا، وذلك في رحلات البخاري في البلدان، يسمع حديث رسول الله ويتعلّمه.

---

(١٤٩) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٢).

(١٥٠) تاريخ الإسلام (١٨/ ٢٣٩).

هذا هو والد البخاري، وحقيق أن يكون لمثله ابن هذا شأنه.

ومثل هذا سنلحظه في حياة أمّه العظيمة.

نشأ البخاري – إذن – يتيماً في حجر أمّه، وقد تعهّدت تربيته وتعليمه، فأتم حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين.

ويكأن سنّة الله في العلماء أن ينشأوا أيتامًا، وفي العظماء، بل وفي الأنبياء!

ويروي المؤرخون أمرًا عجيبًا جرى للبخاري رحمه الله وهو طفل صغير، فقد ذكروا أن بصره أصيب وهو صغير فذهبت عيناه، فرأت والدته في المنام إبراهيم الخليل – عليه السلام –، فقال لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره لكثرة بكائك، أو كثرة دعائك.

قال أحمد بن الفضل البلخي –راوي الخبر–: فأصبحنا وقد رد الله عليه بصره[١٥١].

إيه!

هذه أمّ البخاري، لا جرم منح البخاري العلم والعمل، ورزق الحديث والأدب، لا شكّ في أنّ حادثة كهذه تذهب بلبّ الحازم الحاذق من الرجال، فكيف بامرأة هي أمّه، والأمهات يتفطّر قلب إحداهنّ على ابنها إذا أصابته شجّة في وجهه، فما عساها تفعل إن عميت عيناه وذهب بصره؟ وهو ما يعني أنّه سيقضي حياته بأجمعها على هذه الحال؟

لكن أمّ البخاري – التي استحقّت أن تكون أمّ البخاري – لم تجزع ولم تقنط، وقامت تسأل حاجتها الذي يجيب حوائج السائلين، تضرّعت وابتهلت وبكت ولزمت باب ربّها تطرقه مناجاة ودعاء ونداء، حتى أجاب الله دعاءها وسمع لبكائها، وكأنّما الأم المسكينة أخذتها سنة، أو غلبها النوم لشدة تعبها وإجهادها فنامت، فرأت في منامها البشرى بمعافاة ولدها وردّ الله بصره عليه، لم تره هو معافى ينظر إليها فحسب، وقد كان ذلك كافيًا في البشارة، لكن رأت نبيّ الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام يقول لها: يا هذه، قد رد الله على ابنك بصره، ثمّ يعلّل لها هذا الأمر ويبين لها سبب تلك المنحة الإلهية بقوله: "لكثرة بكائك"، أو قال: "لكثرة دعائك".

وفي هذا إلهام لها ولغيرها بنفع الدعاء والرجاء وسماعه وإجابته، وكذا بفضل التذلل والبكاء بين يدي من عنت الوجوه لوجهه، فكلّ الأمور بيده وكل الشئون بأمره، والملك ملكه، وإنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون.

وهذه كرامة في طياتها كرامات لأم البخاري رحمهما الله تعالى:

---

[١٥١] طبقات الحنابلة (١/٢٧٤)، مقدمة فتح الباري (٤٧٨).

- كرامة ردّ الله بصر ابنها بعد ذهابه.
- وكرامة التجائها إلى ربها وتذللها له.
- وكرامة رؤياها خليل الله في المنام.
- وكرامة أن يكون الخليل رسول الله إليها يحمل البشرى بذلك الأمر.
- وكرامة الكشف عن كمال النهايات بعلو كعبها وكعب ابنها بتلك البدايات.

وهذا كلّه مما يبيّن مكانتها عند الله.

ولئن دفعنا النور الذي لمسناه في سيرة والده إلى القول: حقيق أن يكون لمثل هذا الوالد ابن هذا شأنه، فإنّ هذه الكرامات تدفعنا إلى أن نكرر هذا القول بشأن والدته فنقول: حقيق أن يكون لمثل هذه الأمّ ابن هذا شأنه، وجديرة هي أن تكون أم البخاري.

قامت أمّ البخاريّ بدورها ودور أبيه معًا في تربيته وتعليمه، فربّته وأجادت تربيته، وعلّمته فأحسنت تعليمه، ولما رأت أنه جمع العلم الذي عند علماء بلده رحلت به إلى مكة ليزداد من بحاره وليغرف من أنهاره، فرحلت به وهو في سنّ السادسة عشر إلي مكة، وأدّت فريضة الحج، معها البخاري وأخوه، ثم رجعت هي وأخوه وتركاه يطلب العلم، ولننصت إلى البخاري يحك لنا خبر ذلك فقد سأله محمد بن أبي حاتم، عن ذلك فقال: كيف كان بدء أمرك؟

قال: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتّاب.

فقلت: كم كان سنك؟

فقال: عشر سنين، أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يومًا فيما كان يقرأ للناس: سفيان، عن أبي الزبير، عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم.

فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل، فدخل فنظر فيه، ثم خرج، فقال لي: كيف هو يا غلام؟

قلت: هو الزبير بن عدي، عن إبراهيم، فأخذ القلم مني، وأحكم كتابه، وقال: صدقت.

فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟

قال: ابن إحدى عشرة سنة، فلما طعنت في ست عشرة سنة، كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء، ثم خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما

حججت رجع أخي بها، وتخلفت في طلب الحديث، فلما طعنت فى ثمانى عشرة سنة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم وذلك أيام عبيد الله بن موسى وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى الليالى المقمرة، وقلّ اسمٌ فى التاريخ إلا وله عندى قصة إلا أنى كرهت تطويل الكتاب(١٥٢).

وقد طاف البخاري الدنيا يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجمعه، فرحل إلى المدينة والعراق والشام ومرو ونيسابور وبلخ والري ومصر، حتى أخذ عن ألفٍ وثمانين شيخًا، كتب عنهم العلم، ليس فيهم إلا صاحب حديث وسنة(١٥٣).

ونعود إلى التذكرة بأنّ الذي أعان البخاري على ذلك التطواف في البلدان هو المال الذي تركه له أبوه رحمه الله، وإذا تأملنا في حياة والد ترك لزوجه أولادًا ومالًا وتوفي فأخذت هذه الأم المال فوجّهت أبناءها لطلب العلم وأنفقت عليهم هذا المال، تعينهم به ولا تبخل عليهم، لو أخذنا هذا بعين الاعتبار لرأينا في تلك الأم الكريمة خصلة جديدة من خصال الخير والكمال، فما كنزت المال، ولا خافت عليه الضياع في طريق العلم، ولا قالت – كشأن كثيرات اليوم –: أخزّنه لهم ينفعهم إذا كبروا، أو لا أتعجّل إنفاقه إلى حين، بل أخرجته مباشرة تنفق به على ولدها في بلده، ولا تكتفي بهذا بل تحمله إلى مكة أصل العلم وأم العلماء ليتعلم العلم بلسان أهله، وتنفق في سبيل ذلك نفقات كثيرة، ثم لا تعترض على رحلات البخاري إلى سائر البلدان ليلم بأصول العلم وفصوله وفضوله، وكيف لا؟ وهي التي شجعته وفي هذا الطريق رعته وتؤمل من وراء سعيه فيه أملها كلّه، وقد كان فتحقق أملها، ولعله فاجأها عظم ذلك إن كانت بقيت في الحياة إلى ذلك الحين، أو لعلها أدركت تباشيره فقد ظهرت تباشيره مبكرة كفلق الصبح.

إنّ هذا الصنيع لا تحسنه ولا تقوى عليه كلّ أمّ، إلا أمّ مخلِصة مخلَصة، تركت إلى الله حبلها فألهمها طريقها.

إنّ قراءة سيرة أمّ البخاري على قصرها الشديد هذا تضع أيادينا على نقطة هي غاية في الأهمّية بل هي ركيزة أساسية في تخريج العلماء وتنشئة القادة ألا وهي صلاح الأمّ والتزامها

---

(١٥٢) تاريخ بغداد (٢/٧)، مقدمة الفتح (٤٧٨، ٤٧٩)، طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٢١٧).

(١٥٣) انظر سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٩٥)، فتح الباري (١/٤٤).

وقربها من ربّها، فصلاح الأبوَيْن له أثر عظيم على ذريتهما، وهو سبب صلاحهم، وقد قال الله عن علّة حفظه مال اليتيمَيْن: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

ومن اللافت للنظر أنه سبحانه أعمل في حفظ هذا المال نبيين كريمين هما موسى والخضر، عليهما السلام.

وأيضًا من تلك الركائز استعمال الأم سلاح الدعاء إلى الله في أن يقضي لها حاجتها من ولدها بأن يعينها الله على ما تريده وتطلبه ويوفقها إلى سلوك الطريقة المثلى للوصول إليه، فما أقصر الطريق وأسهلها على من كان الله معينه وما أطولها وأشقها على من لم يكن كذلك، فالأمر كما قيل:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى *** فأولُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

فلا تغفل الأم التي تروم غاية عليا في مشوار تربيتها وتعليمها لأبنائها عن التضرع والإلحاح إلى الله بسؤاله التوفيق والسداد.

وقصة ذهاب بصر البخاري وردّه عليه بسبب دعاء أمه وتضرعها إلى الله هي خير دليل على كرامة تلك الأمّ على الله، ودليل على أقوى أسلحتها في سبيل الوصول إلى غايتها التي كانت سببًا عظيمًا في تغيير وجه العالم ومجرى الحياة.

ولا يخفى على أحد قدر البخاري فنذكره، ولا عظم مكانته فنأتي بالأخبار لندلل عليها، فالمعرف لا يعرف.

ويبقى فيما ذكرنا بعض العبر أشير إليها إشارات سريعة، لعل الأمّ المؤمنة تستفيد منها في تربيتها العملية لولدها:

- مرّ بنا ذكر البخاري خبر "الكتّاب" الذي حفظ فيه القرآن، وألهم فيه حبّ السنّة والحديث، فلا تتعالي على هذه المؤسسة العريقة، ولا تتكبري عليها، ولتجعلي لابنك من بركتها نصيبًا، فأقدم وأبرك وأعظم مؤسسة هي، لله درّ أقوام لا يزالون يقومون عليها، وآخرين يقيمون أولادهم بها ويجددون العهد والثقة معها.
- كان البخاري حين ختم القرآن ابن سبع وحين اهتم بالسنّة وذاكرها كان دون عشر، وحين رحل في طلب العلم خارج بلده بل خارج قطره كان ابن ست عشرة، وقد وردت الأخبار بأنه دوّن أوّل كتبه وهو بعد ذلك بسنتين، أي وهو ابن ثمانية عشر، فانظروا إلى هذه الأسنان واهتمامات الأطفال والشبان وإنجازاتهم، فصمّوا آذانكم عن

سماع اللغو الذي يتردد عليها من مثل: لا تكبتوا الأولاد، ولا تضيّعوا مواهبهم في الحفظ فقط، وهذه الشنشنات الغريبة التي تعوّد الناس على ترديدها دون فهم أو وعي، إن إنتاج البخاري في هذه السنّ يعكف عليه اليوم باحثون ذوي أسنان ضعفها تقريبًا ليحصّلوا الدرجات العلميّة الكبيرة في جزء من مائة جزء من هذه المؤلفات!

- وأخيرًا هذه اهتمامات الأمهات أيضًا في تلك الأيام الفاضلة وهذه مخرجاتها ونتيجتها، فانظري يا أيتها الأمّ المؤمنة، كم في ميزانها من حسنات، وكم ترفع في الدرجات بنفع ابنها الدنيا بأسرها، وغير ذلك ترداد ذكره وذكرها في العالمين، فسبحان ربّي:

علوّ في الحياة وفي الممات ...

وصدق قول الله عن نبيه إبراهيم: { وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)}، أي: واجعل لي ذكرًا جميلًا بعدي أذكر به، ويقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: {وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين}

[الصافات: ١٠٨ - ١١٠].

قال مجاهد، وقتادة: {واجعل لي لسان صدق في الآخرين} يعني: الثناء الحسن، قال مجاهد: وهو كقوله تعالى: {وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) [العنكبوت: ٢٧]، وكقوله: {وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين} [النحل: ١٢٢]، قال ليث بن أبي سليم: كل ملّة تحبّه وتتولاه[١٥٤].

رحم الله الإمام البخاري وأمّه، وسلام عليهما في الخالدين.

[١٥٤] تفسير ابن كثير (٦/ ١٤٧).

(٨) أمُّ أمير المؤمنين

عبد الرحمن الناصر رحمه الله تعالى

في الوقت الذي نفتقد فيه الشواهد والأخبار القولية عن عظمة أمّ عبد الرحمن الناصر، فإنّ الشواهد العملية التطبيقيّة في إثبات ذلك والتنويه به تتزاحم علينا من كلّ مكان، ولا ريب في أن الشهادات العمليّة أصدق قيلًا وأجدى حديثًا؛ فهي تفاعل الواقع وهي حركة الحياة، وأعظم شاهد على عظمة الأمّ هو نتاجها وأثرها الذي يتمثّل في ولدها الذي على عاداتها وأخلاقها ربّته، ومن نبع قلبها وزهرة فؤادها سقته، وعلى عينها صنعته، فقدّمت به للحياة شيئًا مذكورًا، بل قدوة يقتدي بها العالمون ويتأسونها!

وهكذا صنعت أمّ عبد الرحمن الناصر.

وعبد الرحمن هو ابن محمد، ابن الأمير عبد الله أحد أحفاد الأمويين، خلفاء الأندلس الذين حكموا الأندلس بين عامي ١٣٦ هـ و ٤٢٢ هـ، ومن قبلها كانوا خلفاء الدنيا بأسرها، الذين حكموا الأقطار الإسلامية بين عامي ٤١ هـ و ١٣٢ هـ[١٥٥].

وهو سميّ عبد الرحمن الداخل صقر قريش ومؤسس الدولة الأمويّة في الأندلس —وهو حفيده—، سمي به تيمنًا بما حققه من مفاخر وإنجازات لا تكفي الصحائف والدفاتر لسردها وعد آثارها، وقد كان لحفيده هذا نصيبًا كبيرًا ويمنًا عظيمًا بهذا الاسم فسطر هو الآخر خلال حياته المباركة أعمالًا عظيمة ومآثر جليلة، ويكفيه شرفًا أنه مدّ ظلّ الدولة الإسلامية في الأندلس حتى شملت يومئذ أجزاء كبيرة من أهم دول القارة الأوربية؛ فرنسا وسويسرا وإيطاليا، وريض كل أولئك له، ورجفوا لبأسه، وأصبحت الأندلس في عصره مقر خلافة يحتكم إليها عواهل أوروبا وملوكها، ويختلف إلى معاهدها علماء الأمم وفلاسفتها، بعدما كانت مجرد ولاية تميد بالفتن، وتشرق بالدماء، فقرت له بأسرها، وسنى لخشيته قلبها وأطرافها.

وذلكم الفضل في العزّ والنصر، والجهاد والظفر، والسياسة والحكم يعود سرّه كلّه إلى أمّ عبد الرحمن، تلك الأمّ التي اعتنت بتربيته بعد ما قتل عمّه أباه، فنشأته على أخلاق الأبطال، واهتمت لمستقبله اهتمامًا يجمع بين عمل الأمّ والأب معًا في قلبٍ واحدٍ، قلبٍ يحمل نفس الأمل الذي جمعهما يومًا في عقد وأسكن نفسيهما في مودة ورحمة، نفس الأمل الذي شعّ

---

[١٥٥] انظر: البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب تأليف ابن عذاري، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس تأليف خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، ودولة الإسلام في الأندلس تأليف محمد عبد الله عنان.

بريقه يوم أهلّ عبد الرحمن مولودًا في ٢٢ رمضان ٢٧٧ هـ، فلم يمض على مولده سوى واحد وعشرين يومًا حتى رحل والده عن الدنيا[١٥٦]، وأراد بريق الأمل ذاك أن ينطفئ فزودته أمّ عبد الرحمن من قوة نفسها وعزم قلبها، واستمرت ترعى وليدها به حتى ترعرع طفلًا، وشبّ صبيًّا ثم رجلًا، ذلك الأمل هو الذي كان يحمل أم عبد الرحمن ولا يضعها حتى حققت ما أمّلته.

كانت أمّ عبد الرحمن جارية، ملك يمين، ولم تكن حرّة، سبيت أثناء حروب الأندلس في أوروبا، وكانت تسمى مزنة، فنكحها محمد وأولدها عبد الرحمن، وبهذا صارت أم ولده، وأصبحت بولادة هذا الولد حرّة، أعتقها ولدها[١٥٧].

ولم يكن أمر الرق ذاك ليقعد بهمة "مزنة" أم عبد الرحمن عن طلب المعالي، وكم في الأولين لها من قدوة وأسوة تتخذ منهنّ رفعة لهمتها وشحذًا لعزمها على ما تصبو إليه، ويكفيها أن تنظر في سماء التاريخ فترى نجمة متلألئة تبدو واضحة للأولين والآخرين تلكم هي هاجرُ زوج نبي الله إبراهيم وأم نبي الله إسماعيل وجدّة خاتم النبيين محمّد صلى الله عليه وسلم، فقد كانت هاجر جاريةً تزوَّجها إبراهيم – عليه الصلاة والسلام — أهدته إياها زوجُه سارة، لينجب منها الولد فولدت له إسماعيل، ثم إنّ سارة ولدت هي الأخرى إسحاق[١٥٨]، وأيضًا غير هاجر كثيرات، كمارية القبطية أمّ ولد النبي صلى الله عليه وسلم، حيث ولدت له إبراهيم، وكان لعمر بن الخطاب أمهات أولاد، وكذلك لعلي بن أبي طالب، ولكثير من الصحابة رضي الله عنهم، وكان علي زين العابدين بن الحسين، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر، من أمهات الأولاد، وروي أن الناس لم يكونوا يرغبون في أمّهات الأولاد حتى ولد هؤلاء الثلاثة من أمهات الأولاد، فرغب الناس فيهن[١٥٩].

لقد كان لأمّ عبد الرحمن تلك عزيمة لا يفلّها الحديد، وبعزيمتها تلك استطاعت أن تصل ولدها بسلم الأمجاد وأن تسلكه في سلك العظماء حينما ربته صغيرًا على حب الجهاد وورثته مؤهّلات القيادة، وقد كان بين يديها ميراث عظيم من تاريخ آبائه وأجداده تحثه على تمثله وتؤزه على الاقتداء به، وبالفعل سار عبد الرحمن على نهج آبائه العظام، لا سيما عبد الرحمن الداخل،

---

[١٥٦] دولة الإسلام في الأندلس (٣٧٣/١).

[١٥٧] انظر أحكام "أمّ الولد" في الموسوعة الفقهية الكويتية (٤/ ١٦٤– ١٦٩).

[١٥٨] انظر تفصيل ذلك من حديث أبي هريرة في أحمد (٩٢٣٠)، والبخارى (٤٧٩٦)، ومسلم (٢٣٧١)، وحديث ابن عباس في البخاري (٣١٨٥).

[١٥٩] المغني (٥٢٧/٩، ٥٢٨).

وحينما ولي الخلافة في الأندلس – وكان ثامن حكامها وأول من لقب بأمير المؤمنين منهم– كانت ولايته كلها جهادًا في سبيل الله، لا يمل الغزو، واستمر على ذلك مدة ولايته التي كانت خمسين سنة، لم يعرف خلالها طعماً للسكون، قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: "لم يزل عبد الرحمن يغزو حتى أقام العوج، ومهد البلاد، ووضع العدل، وكثر الأمن، ولم تزل كلمته نافذة"[١٦٠].

وكانت شخصيّة عبد الرحمن تجمع بين شخصية القائد العسكري المحنك والسياسي الداهية ورجل الدولة والإدارة اللبيب، وهي الصفات التي لم يسبق أن اجتمعت في حاكم للأندلس منذ عهد جده الأمير عبد الرحمن الداخل[١٦١].

هذا بعض صنيع عبد الرحمن وكلّ صنائعه رحمه الله مشرّفة، وجميع ذلك شواهد عمليّة على عظمة تلك الأمّ التي ربّته.

كانت أمّ عبد الرحمن مسيحيّة – وتشير الروايات الأجنبية إليها باسم ماريا –، ولا يبعد مع هذه المآثر جميعها أن تكون أسلمت، سيما وهي زوجة أمير ابن أمير ووالدة أمير المؤمنين، فلئن حدث ذلك فأمرها –كما رأيناه– عجيب، وإن لم تكن أسلمت فإنّ أمرها أعجب!

وكان "أبوه" محمّد أكبر أبناء والده الأمير عبد الله، وقد كتب له أبوه بولاية العهد من بعده، الأمر الذي حمل أخاه المطرّف على حسده، فوشى المطرف بأخيه أبي عبد الرحمن عند أبيه وكانت وشايته تحمل إتهامة بالتواطؤ مع زعيم المتمردين على عرش الإمارة عمر بن حفصون، فأمر الأمير عبد الله باحتجازه في القصر، ولما ثبتت براءته أمر بإطلاق سراحه، لكنه شغل عن متابعة تنفيذ ذلك بالخروج في حملة، وكان قد استخلف المطرف حين خروجه فبادر المطرّف إلى محمد في سجنه وأثخنه طعانًا حتى مات[١٦٢].

وقد عاون أمّ عبد الرحمن في تربيته بعد مقتل أبيه جدُّه عبد الله فقد كفله وأسكنه في قصره، فنشأ مقرّبًا إلى جدّه الذي آثره وأولاه عنايته، وعني بتربيته وتعليمه، فتعلم القرآن والسنة، كما درس الشعر والتاريخ والنحو، وعلّمه فنون الحرب والفروسية، وكان محلّ ثقة جدّه، ومن هنا أوكل إليه جدهّ القيام بمهام عديدة، بل وندبه للجلوس مكانه في بعض المناسبات والأعياد

---

(١٦٠) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٧).

(١٦١) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (١٥٧/٢).

(١٦٢) دولة الإسلام في الأندلس (٣٤٨/١).

لتسلّم الجند عليه، ولما اشتد المرض بالجد "الأمير عبد الله"، ألقى بخاتمه إلى حفيده عبد الرحمن إشارة منه باستخلافه(١٦٣).

ورضي بذلك أعمامه فكانت خلافته من المستطرف؛ لأنه كان شابًّا، وبالحضرة جماعة من أعمامه، وأعمام أبيه، فلم يعترض معترض عليه، وبايعوه!

ويظهر أن ذلك كان زهدًا منهم في الإمارة، بسبب سوء أحوال الأندلس وتمزقها يومئذٍ(١٦٤)، فكانت بيعته فتحًا ونصرًا وعزًّا، وكان عمله موفّقًا غاية التوفيق -كما أسلفنا-.

وقد قال الذهبي في سير أعلام النبلاء في مدحه: «كان لا يمل من الغزو، فيه سؤدد وحزم وإقدام، وسجايا حميدة، أصابهم قحط، فجاء رسول قاضيه منذر البلوطي يحرّكه للخروج، فلبس ثوبًا خشنًا، وبكى واستغفر، وتذلّل لربه، وقال: ناصيتي بيدك، لا تعذب الرعية بي، لن يفوتك مني شيء.

فبلغ القاضي ذلك، فتهلل وجهه، وقال: إذا خشع جبار الأرض، يرحم جبار السماء، فاستسقوا ورحموا.

وكان الناصر - رحمه الله - ينطوي على دين، وحسن خلق ومزاح"(١٦٥).

سقى الله أيام الناصر تلك خيرًا ورحمة، وأعاد علينا أمثالها كرة أخرى.

---

(١٦٣) دولة الإسلام في الأندلس (٣٧٣/١).

(١٦٤) انظر: البيان المغرب (١٥٧/٢)، والتحديات الداخلية والخارجية التي واجهت الأندلس خلال الفترة (٣٠٠-٣٦٦ هـ / ٩١٢-٩٧٦ م)، (٢٤)، جامعة الموصل، انتصار محمد صالح الدليمي.

(١٦٥) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٥٦٣).

(٩) أمّ شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله

يقيني أنّ المرحلة التي نعيشها هذه ستحذف من تاريخ أمتنا ولن تسجّل فيه، ذلك لأنها مرحلة شاذّة ليس لها فيما مرّ من أدوارها مثيل، أمّا أمتنا فهي في كلّ وقت تفي فيه لدينها أمّة ذات عطاء مدرار، على المستوى الجمعي والفردي.

وأحيانًا تُبهر أمتُنا متابعيها بحجم عطائها حتى ليُخيّل إلى من يرقبه أنّه كنزٌ مدّخرٌ أو عطاءٌ من نوع خاص، وهو كذلك فعلًا حين يريد الله تجديد الدين في قلوب أبنائها فيمنّ عليها بمن يضع فيه الأهليّة لذلك، ويضع فيمن حوله القدرة على صناعته وتأهيله.

محور حديثنا في هذه السطور شخصيّة ساهمت في صناعة إمام مجتهد مجدّد شاء الله له أن يحمل راية الدّين في القرن السابع الهجري في نواحٍ كثيرة، ليست علميّة فحسب، بل علميّة وعمليّة تثبت مدى حاجة المسلمين في هذا القرن إلى ظهور هذا الإمام الذي كان لا بد من ظهور مثله؛ لإعادة استثارة العالم من جديد إلى دين الله بعد أن غطّاه ظلام البعد عنه.

احتل ابن تيمية رحمه الله في العلوم الشرعيّة مكانة عظيمة سوّغت — بحق – لعارفي قدره من الذين عاصروه أو جاءوا بعده تلقيبه بلقب «شيخ الإسلام» – وقد أورد ابن ناصر الدمشقي في كتابه الرد الوافر (٨٧) ترجمة لأكابر العلماء في عصر ابن تيمية وبعد عصره ممن أطلقوا هذا اللقب عليه[١٦٦]، ورأينا جهبذًا من جهابذة العلماء المعاصرين وهو الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله يدرس حياة ابن تيميّة وآثاره بعد دراسته حياة الأئمة الأربعة مباشرة، وقبل أن يدرس غيره من أئمة الإسلام الكبار، ولنطالع كلامه الذي ينوّه فيه إلى أسباب ذلك يقول: "برز إلى الخاطر إمام شغل عصره بفكره ورأيه ومسلكه، فدوى صوته بآرائه في مجتمعه، فتقبلتها عقول واستساغتها، وضاقت عنها أخرى وردتها، وانبرى لمنازلته المخالفون، وشدّ أزره الموافقون، وهو في الجمعين يصول ويجول، ويجادل ويناضل، والعامة من وراء الفريقين قد سيطر عليهم الإعجاب بشخصه وبيانه، وقوة جنانه وحدة لسانه، واعترتهم الدهشة لما يجيء به من آراء يجدّد بها أمر هذه الأمة، ويعيد إليها دينها غضًّا قشيبًا كما ابتدأ.

---

[١٦٦] الرد الوافر على من زعم أن من سمّى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، تأليف ابن ناصر الدين الدمشقي، حققه الشيخ زهير الشاويش، ونشره المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى عام ١٤٠٠ هـ.

ذلكم الإمام الجريء هو تقي الدين ابن تيمية، صاحب المواقف المشهودة، والرسائل المنضودة، اتجهت لدراسته مستعيناً بالله سبحانه، لأن دراسته دراسة لجيل، وتعرف لقبس من النور أضاء في دياجير الظلام، ولأن آراءه في الفقه والعقائد تعتنقها الآن طائفة من الأمة الإسلامية تأخذ بالشريعة في كل أحكامها وقوانينها، ولأننا نحن المصريين في قوانين الزواج والوصية والوقف قد نهلنا من آرائه، فكثير مما اشتمل عليه القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩م مأخوذ من آرائه، مقتبس من اختياراته، وشروط الواقفين والوصايا اقتبست أحكامها في قانوني الوقف والوصية من أقواله.

ثم إنّ دراسة ذلك الإمام الجليل تعطينا صورة لفقيه قد اتصل بالحياة، وتعلق قلبه وعقله وفكره بالكتاب والسنة والهدي النبوي، والسلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فهو يأتي بفكر سلفي آخذ بأحكام القرآن الكريم، والسنة النبوية، يعالج به مشاكل الحياة الواقعة بالقسطاس المستقيم، بل يلقي في حقل الحياة العاملة الكادحة المتوثبة بالبذرة الصالحة التي استنبطها من الكتاب والسنة فتنبت الزرع، وتخرج الثمر، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وإنّا وقد اتجهنا إلى دراسة ذلك العالم الكاتب الخطيب المجاهد الذي حمل السيف والسنان، كما حمل القلم والبيان، سنجتهد في دراسة حياته، ومجاوبتها لروح عصره، وتأثيرها فيه، ثم ندرس آراءه كعالم من علماء الكلام وآراءه كفقيه، واجتهاده، والأصول التي تقيد بها، ومقدار الصلة التي تربطه بالفقه الحنبلي"[١٦٧].

ومناقب ابن تيميّة رحمه الله كثيرة، والنقول حولها موفورة، وشهرته – كما يقول الحافظ ابن رجب –: تغني عن الإطناب في ذكره، والإسهاب في أمره[١٦٨]، وليس غرضنا هنا إلا مجرّد الإشارة، ومن أراد المزيد فعليه ببحور تراجمه، ومظانّها معلومة، وبحسبنا أن يلمح القارئ الكريم شيئًا من رفيع مقامه لنقول:

إنّ ذلك المجد الرّفيع قد شاركت بقوة في تأسيسه أمّ شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمها الله وعظّم مثوبتها، وإن لم تذكر لنا الكتب شيئًا كثيرًا عنها، فإنّ البعض المذكور يخبرنا عما لم يذكر، ومن ذلك الرسائل التي تناوبت بينهما حينما كان في مصر وهي قدّس الله روحها في الشام، ومن ذلك أنه كتب إليها مرّة رسالة يعتذر فيها عن إقامته بمصر، لأنه يرى ذلك أمرًا ضروريًّا لتعليم الناس الدّين، فكتب رحمه الله: من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة، أقرّ الله عينها بنعمه

---

[١٦٧] ابن تيمية حياته وعصره – آراؤه وفقهه (٦، ٧).

[١٦٨] الذيل على طبقات الحنابلة (٣٨٧/٢).

وأسبغ عليها جزيل كرمه، وجعلها من خيار إمائه وخدمه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا.

كتابي إليكم عن نعمٍ من الله عظيمة ومننٍ كريمة وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها، ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد وأياديه جلت عن التعداد.

وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد إنما هو لخدمة الدين ولأمور ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم – ولله الحمد– ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على الإقامة والاستيطان شهرًا واحدًا، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخير، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية.

ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر، مستخيرون الله سبحانه وتعالى، فلا يظن الظانّ أنّا نؤثر على قربكم شيئًا من أمور الدنيا، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قربكم أرجح منه، ولكن ثمّ أمور كبار تهم الإسلام والمسلمين نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب.

والمطلوب كثرة الدعاء بالخير، فإن الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، كثيرًا كثيرًا، وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار، وسائر الجيران والأهل والأصحاب واحدًا واحدًا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

ويظهر من الرّسالة: أنّ والده الإمام عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية كان قد توفّي رحمه الله في هذا الوقت، وهو ما تثبته التواريخ، فقد مات عام ٦٨٢هـ، أي قبل ذلك الوقت بقريب من خمس وعشرين سنة.

ويظهر منها أيضًا: برّ ابن تيمية البالغ بأمه وحبّه الجمّ لها وإجلاله وإكباره العظيمان لها رضي الله عنهما.

ويظهر منها أيضًا: حسن ظنّ ابن تيمية بأمه وثقته بدقيق فهمها وإخلاص قصدها وإرادتها حتى ليخبر في يقين أنها لا تختار غير مراد الشرع المحبب إلى الرب سبحانه، ويعتمد في بلوغ غرضه على تقرير ذلك وتأكيده لا طلبه والحث عليه.

ويظهر منها أيضًا: أن رسالة ابن تيمية إلى أمه –وإن رقت عبارتها وسهلت لغتها – قد اشتملت على خطاب علمي يخبر فيه ابن تيمية أمه عن أمور علميّة، فهو يتحدث إليها عن شئون تتعلق بالدين وأخرى تتعلق بالدنيا، ويتحدث فيه عن الراجح وغيره، والمصلحة والمفسدة، والعام والخاص، ويذكر الشاهد والغائب، ويذكر أعمق من هذا لو أننا غصنا في تحليل رسالته إلى أبعد من ذلك، وهذا معناه أن أمّه رفع الله درجتها كانت على وعي بهذه الاصطلاحات، ولم لا وهي بين هؤلاء العمالقة: ابن تيمية الأب والجد والحفيد ومعهم جمع من أعمامه وإخوته كانوا يشكلون معهدًا علميًّا لدراسة علوم الدين الحنيف في بيتهم؟ لله هم!

ويظهر من الرّسالة التي أرسلتها أمه ردًّا على رسالته ما يؤكد هذه الدروس التي استظهرناها من رسالته، فإنها رحمها الله تعالى ردّت عليه بالجواب التالي: ولدي الحبيب الرضيّ أحمد ابن تيمية، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه، فإنه والله لمثل هذا ربيتك، ولخدمة الإسلام والمسلمين نذرتك، وعلى شرائع الدّين علمتك، ولا تظننَّ يا ولدي أنّ قربك مني أحب إلي من قربك من دينك وخدمتك للإسلام والمسلمين في شتّى الأمصار، بل يا ولدي إنَّ غاية رضائي عليك لا يكون إلا بقدر ما تقدمه لدينك وللمسلمين، وإنّي يا ولدي لن أسألك غداً أمام الله عن بعدك عني؛ لأنّي أعلم أين وفيم أنت، ولكن يا أحمد سأسألك أمام الله وأحاسبك إن قصّرت في خدمة دين الله وخدمة أتباعه من إخوانك المسلمين!

رضي الله عنك وأنار بالخير دربك وسدّد خطاك وجمعني الله وإياك تحت ظل عرش الرحمن يوم لا ظلّ إلا ظلّه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[١٦٩].

الله أكبر، الله أكبر، ما هذا؟ إنّ كلّ ما قدّمناه من دروس في رسالة ولدها استظهارًا ينطق هنا في رسالتها جهارًا، بل وبزيادة، فهو:

- يخبر عن أي نوع من النساء كانت، وعي قلب، وحسن فهم، ورجاحة عقل، ونبل هدف.

---

[١٦٩] مجموع الفتاوى (٢٨/٤٨).

- ويخبر عن أي منزلة يتبوّأها المرء حين يكون الحق ملء جنانه، ومطمح أمله، ودافع أقواله وأعماله.

- ويخبر عن أيّة عزة تلك التي يكتسبها المرء ثمرة لحسن قصده وإخلاص طويته ونقاء سريرته فإذا أعماله الظاهرة تشي بما بينه وبين الله من أعمال الباطن ومجاهدات الخفاء، وأنه يرزق بنيّته وعلى قدرها؛ ما أظنها ترى ثوابها في مكانها أقل من ثوابه في رحلاته، وظني بها أنها منذ ولدته تحتسب عمرها في رباط، وأنها منذ خرّجته من مدرستها احتسبته مجاهدًا في سبيل تحقيق هدفها، يخرج فيجاهد ثم يجيء فيفيء إليها متحيزًا، كلّ حين ومين، و"المرأة الذكية إذا كانت أمًّا أو زوجة لطالب علم؛ لا تحسب من عمرها إلا يومًا يسطّر هو فيه حرفًا . أو يقرأ حرفًا . يخدم دينه، فهي في الحقيقة اليراع والقرطاس، وهي دافع البنان والفؤاد، فعمره عمرها، ورباطه رباطها، وخروجه راحتها، وجهاده منيتها، وفيئه مكافأتُها" كما تقول بعض الذكيّات.

- ويخبر عن نظرة صاحب الهمة والعزيمة إلى الأشياء من حوله وبصيرته بما وراء الحواجز والعوائق والغيوم وأنه يرى الفرج قريبًا في بعده، والأمل متحققًا في شدة الحلكة، واليسر حاصلًا في شدة العسر.

- وعن نظر اللبيب العاقل إلى كبريات الأمور وتعاليه على سفاسفها، فلا المصلحة مصلحة الأنا ولا الحق في تحقيق المنافع الشخصيّة ولا الخير فيما يعجّل ويقدّم من حوائج ومتطلّبات الدنيا، بل المصلحة مصلحة المسلمين، والحق هو ما يضمن سلامتهم وسلامة دينهم قبل ذلك، والخير في العاجل والآجل هو ما يدلّ عليه الشرع ويرضاه منزله ويأجر صاحبه الخير عليه يوم القيامة.

إنّ أمّ شيخ الإسلام لتخبره وتخبر العالمين من ورائه أنها ربّته ليكون خادمًا لهذا الدين، ساعيًا فيما يحقق له الصيانة والرفعة والغلبة والنصرة، وأنها قد أعدته لهذا حين أقامت حياته على أساسٍ من شرائع الدين فعلمته إياها وأقامته في طريقها، ولهذا فإنها تنتظر اليوم منه إذا استطاع نفع الدين ألا يتردد عن تقديم نفعه على كل شيء مهما تكن التضحيات ولو كانت قربه منها، فإن قربه منها وإن كان حبيبًا إلى قلبها لكن قربه من ربه ودينه أحب إليها، وخدمته للإسلام والمسلمين في شتّى الأمصار أقرب إلى قلبها من أي شيء سواه، ولذلك فإنه لن يحصل غاية رضائها عليه إلا بذلك ولن يكون ذلك الرضا منها عليه إلا بقدر ما يقدمه لدينه وللمسلمين،

فذلك هو مقياس رضائها الذي ينبغي أن يراعيه وميزان العلاقة التي تربط بينهما لا عاطفة الأمومة والبنوة ولا غيرهما.

لله هذه الهمم التي تنجب لأجل غاية، وتربي على هدف، وتسلك السبيل القويم في مراحل الوصول، وتقيم على المطالبة بحقوقها حين تكتمل لها الأدوات، وتنتظر النصر والظفر حين تؤدي دورها ويحين وقت الوفاء لها، فتنتظر الثمرة الحلوة للجهد والمشقة والبذل الذي قدمته.

وإنّ القلب لتقف دقاته أمام قول أمّ شيخ الإسلام له: وإنّي يا ولدي لن أسألك غداً أمام الله عن بعدك عني؛ لأنّي أعلم أين وفيم أنت، ولكن يا أحمد سأسألك أمام الله وأحاسبك إن قصّرت في خدمة دين الله وخدمة أتباعه من إخوانك المسلمين!

ربّاه!

إنّ بعض العبارات تحته من الدروس العظيمة والعظات النافعة ما لا تكشف عنه الكلمات مهما تكن دقيقة محكمة، بل تحتاج إلى تدبّر القلب ويقظته بجمعيته ليفهمها، وهذه العبارة منها، فلا نتعرّض لها ببيان، وليحم قلبك أيها القارئ حول أنوارها وليطوّف في سماء معانيها، وحسبنا أن نقول: مثل هذه حريٌّ بابنها أن يكون شيخ الإسلام.

وبعد، فلعلّ في سيرة أمّ ابن تيمية – هذه السيرة العمليّة القصيرة جدًّا – من النفع ما لا تفي به المجلدات الضخمة النظريّة لتنبئنا عن عظم الجزاء الذي ينتظر المرابطات على ثغور التربية وينبههن إلى أهميّة دورهنّ المهمَل في تربية وتنشئة الأجيال.

رحم الله ابن تيمية وأمّه، ورزقنا بمن يقوم بمهماتهما في الدين والنهوض بأمة خير النبيين، آمين.

(١٠) أمّ السلطان

محمد الفاتح رحمهما الله تعالى.

ومثل والدة أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله، أم السلطان محمد الفاتح، فكلتاهما كانتا نصرانيتين، ولعلهما أسلمتا إن شاء الله، وكل واحد من هذين الخليفتين — ابنيهما – قد ساق الله تعالى على يديه خيرًا عميمًا لأمة النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا كان عبد الرحمن الناصر قد يسّر الله تعالى على يديه وحدة المسلمين في بلاد الأندلس ودحر العدو الصليبي هناك، فقد وفق الله السلطان الشّاب ذو الأحد وعشرين ربيعًا محمد الفاتح لمجد بلاد المسلمين في المشرق الإسلامي ووضع نهاية الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وقضى عليها تمامًا وعلى حلفٍ مُكوَّن من البيزنطيين والبنادقة والجنويين بقيادة قيصر الروم، وكان سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين بقيادة محمد الفاتح نقطة تحول الدولة العثمانية إلى إمبراطورية عظمى بحق، وفتحًا عظيمًا على دين الإسلام.

لقد كان لوالدة السلطان محمد الفاتح دور في تربية ولدها القائد مع والده وشيوخه ومن ثم في إنجاز هذا الفتح العظيم، فبينما كان السلطان مراد الثاني سادس السلاطين العثمانيين يعمل على توحيد أملاك السلطنة ويستعد للتوسّع في أراضي أوروبا، كانت زوجته "هما خاتون"، ترضع ابنهما محمد لبن العزة والكرامة وتغرس فيه معاني الفتح والجهاد، وتغذّيه بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي بشّرت بفتح القسطنطينيّة أحد أبرز الأحداث في التاريخ الإسلاميّ.

لقد كانت أحاديث الفتح تلك تغازل الخلفاء والولاة والأمراء والقادة منذ أن قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مرّ العصور.

فقد بشر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أصحابه بفتح القسطنطينيّة في عدة مواقف، من ذلك: قوله – صلى الله عليه وسلم –: «لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[١٧٠].

والقسطنطينيّة بعد ذلك كله هي المعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، والتي طالما اعتزت بها الامبراطورية البيزنطية بصورة خاصة والمسيحية بصورة عامة.

---

[١٧٠] أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٥)، وضعفه يسير.

ولهذا جميعه فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً في أن يتحقق فيهم ولهم ذلك الشرف الكبير، لقد تحركت القوات المسلمة المجاهدة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان في أولى الحملات الإسلامية على القسطنطينيّة سنة (٤٤هـ) ولكنها لم تنجح، وقد تكررت حملات أخرى في عهده رضي الله عنه حظيت بنفس النتيجة.

كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية، وتعد هذه الحملة أقوى الحملات الأموية عليها، وهي تلك الحملة التي تمت في أيام سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨هـ[١٧١].

واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينية حيث شهد العصر العباسي الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها

وتهديدها مع أنها هزتها وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد سنة (١٩٠هـ)[١٧٢].

وفي مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي تجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية، وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيام السلطان بايزيد "الصاعقة " الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة ٧٩٦هـ - ١٣٩٣م، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلمًا إلى المسلمين، ولكن ذلك الامبراطور أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوربية لصد الهجوم الاسلامي عن القسطنطينية، وكاد الفتح يتم لولا أن وقع هجوم المغول على بلاد الدولة العثمانية وجرت حروب وأحداث كاد بعضها أن يؤدي إلى تفكك الدولة[١٧٣].

وما أن استقرت الأحوال بعد ذلك حتى عادت روح الجهاد تنادي من جديد، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة ٨٢٤هـ-٨٦٣هـ/ ١٤٢١ - ١٤٥١م جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثرة من مرة، وكان الإمبراطور البيزنطي في أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم الخارجين على السلطان[١٧٤]، وبهذه الطريقة نجح في إشغاله في هدفه الذي حرص عليه، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا في زمن ابنه محمد

---

[١٧١] ابن خلدون العبر (٣/ ٧٠)، تاريخ خليفة بن خياط، ص٣١٥.

[١٧٢] خليفة بن خياط، تاريخه، ص٤٥٨، تاريخ الطبري (١٠/ ٦٩)، ابن الأثير الكامل (٦/ ١٨٦،١٨٥).

[١٧٣] الفتوح الإسلامية عبر العصور (٣٥٨).

[١٧٤] الفتوح الإسلامية عبر العصور (٣٥٨).

الفاتح فيما بعد، فهو الذي فتحها وجعلها عاصمة للدولة العثمانية واستطاع بذلك تحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية[١٧٥].

وقد ذكر أن أم السلطان محمد الفاتح كانت تأخذه وهو صغير وقت صلاة الفجر، لتريه أسوار القسطنطينية وتقول له: أنت يا محمد تفتح هذه الأسوار اسمك محمد كما قال رسول الله صلي الله عليه وسلم، والطفل الصغير يقول: كيف يا أمي أفتح هذه المدينة الكبيرة؟! فتقول — بحكمة –: بالقرآن والسلطان والسلاح وحب الناس.

والله أعلم بحقيقة ذلك فلم أطالعه في كتاب، وإنما يتردد في المقالات دون عزو، على أنّ نتاج عمل هذه الأم الكريمة خير دليل على جهدها، وهو ولدها محمد الذي فاق جميع أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ ووصوله أخيرًا إلى ما وصل إليه من أمجاد.

لقد حكم محمد الفاتح ما يقرب من ثلاثين عامًا، كانت كلها خيرًا وعزة وبركة على المسلمين[١٧٦].

فرحمه الله رحمة واسعة وشكر صنيعه وجزاه عن الإسلام خير الجزاء.

---

[١٧٥] تاريخ الدولة التركية (٨٠) د. مؤميد أحمد غازي.

[١٧٦] انظر: قيام الدولة العثمانية، (٤٣)، فاتح القسطنطينية (٨٤).

أمّة معطاءة

وأخيرًا فقد كانت هذه النماذج التي أوردت لك بعضًا من حياتها أمثلة لما وراءها، ووراءها أضعافها مضاعفة إلى ما شاء الله، في هذه الأمة الخيريّة السعيدة الزاخرة بالقدوات، وللقارئ الكريم الذي يرغب في مزيد من النماذج أن يطالع سيرة أمّ عمارة نسيبة بنت كعب، وأمّ معاوية بن أبي سفيان، وأمّ زيد بن ثابت، وأمّ المجاهدين الخنساء، وأمّ ربيعة الرأي، وأمّ ابن المديني، وأمّ أبي الفرج بن الجوزي، وأمّ صلاح الدين، وأمّ أبي عبد الله الصغير، وأمّ السلاطين خناثة بنت بكار، وأمّ بديع الزمان النورسيّ، وأمّ سيّد قطب.

والقائمة مفتوحة لمن أرادت أن تسلك اسمها في طريق النور والعزة والقدوة والأسوة.

رضي الله عنّا وعنهم بفضله، وشملنا معهم برحمته ومغفرته وأفاض علينا من جوده وكرمه، آمين.

الركائز الأساسيّة

في تخريج العلماء وتنشئة القادة

تتبيّن لنا من خلال سيرة أولئك العظيمات بعض الركائز الأساسيّة التي ينبغي لكلّ أمّ تهدف إلى تخريج أولادها وتنشئتهم على منوال هؤلاء الأمهات أن تعتمدها في منهجها وأن تنطلق منها في مشوارها، ويمكن تلخيص هذه الركائز في نقاط مختصرة كما يلي:

١) الوعي، فينبغي أن تكون هذه الأمّ على وعي بأهمية دورها، ولا يتمّ ذلك الوعي إلا إذا كانت الأم على درجة من العلم الشرعي الذي تعرف به صحة دينها وتتقرّب به إلى ربّها تبارك وتعالى، ويجدر بالأم المسلمة في هذا الاطلاع على كتاب: "مسؤولية المرأة الثقافية" وهو كتيب صغير الحجم قيم مفيد للدكتور عبد الرحمن الزنيدي، وكتاب "المرأة المسلمة ومسؤولياتها في الواقع المعاصر" للدكتور فالح بن محمد الصغير.

٢) الصلاح، أن تكون هذه الأم في نفسها صالحة، طائعة، ملتزمة في حياتها بمنهج الله ورسوله، ساعية على طريق أولئك القدوات الأوائل عملًا وواقعًا، ويجدر احتذاء تأطير في هذا الهدف من مربية قدوة، ويستعان في هذا السبيل أيضًا بكتاب: حياة الصحابة لمعرفة مواقع أقدامنا في منهج سلفنا وقدواتنا الصالحين.

٣) الأسرة الصالحة، بأن يحسن الزوج اختيار زوجه وتحسن الزوجة اختيار زوجها على أساس من الدين ومنهج ربّ العالمين، في العلم والعمل والمعاملة والعقل.

٤) الحلال، في المأكل والمشرب والملبس والمسكن، فلا يدخل الوالدان على أبنائهما شيئًا من الحرام، ألبتة، فإنّ ما نبت من حرام وسحت الفساد أولى به.

٥) التوكّل والثقة بالله والتضرّع واللجوء إليه والأخذ بكافّة أسباب المعونة منه سبحانه وتعالى، في كلّ خطوة؛ قبلها وأثناءها وبعدها.

٦) التخطيط، فجدير بالمهامّ العظيمة أن يدبّر لها ويخطّط، ويرسم لها ويقدّر، وأن يراعى في ذلك كلّ ما يلزم لنجاح الخطة من واقعية وقدرات واحتياجات ومفاجآت، وفي مرحلة الحمل وما قبله، والطفولة إلى سنّ الرابعة تقريبًا فرصة لهذه المهمّة وإنفاذها بجدارة واقتدار.

٧) التبكير، فلا يضيّع الوالدان فرصة على أنفسهما وولدهما في إنفاذ مخططهما والبدء بمشروع حياتهما، فمن أول لحظات وعي ابنهما أو ابنتهما يبدءان في العمل ويجدّان خلاله دون انتظار أو توقّف أو عطلات تكون أسبابها من طرفهم.

٨) الاستعانة بأهل الذكر والخبرة في كلّ مرحلة بما تتطلبه، من محفّظ، أو معلّم، أو مربٍّ، وهكذا حتى يكتمل الغرس ويتجذر الأصل ويبدو الثبات، ويتعهّدانه هم مع المسئولين بالرعاية والتقويم والتطبيق وقياس المراحل على الأهداف المرحلية، وهكذا لا يدعان جهدهما يضيع في لحظة أو نجاحهما المنشود يعود سرابًا.

٩) الاستعداد المادّي، فتكون التضحية بالمال في سبيل العلم والمعرفة حاضرة وافرة، ولا يدخر دون العلم نفيس، بل يكون العلم أنفس ما يبذل له، ويكون أعزّ ما ينفق لأجل تحصيله هينًا رخيصًا، ومن ثمّ لا يغامر بوقت الابن في سبيل تحصيله بعض المال، أو تضييع بعض وقته من التعلّم بحجة تنفس بعض السعة وأخذ وقت للراحة إلى آخر تلك المزاعم الواهنة.

١٠) توفير البيئة والمناخ المناسب في فترات الإعداد والتأهيل، من إشراف وإعداد، ثم صحبة ورفقة وخلان، في كلّ أوقات ومجالات ذلك، وتلخيص ذلك في توفير البيئة الطيبة المثمرة واجتناب البيئة الخبيثة المعطّلة.

١١) الصبر والمصابرة وعدم اليأس أو الإحباط على طول الطريق، ورعاية القلب بالسقيا لئلا يطول عليه الأمد فيقسو أو يتثبط أو يملّ، ويساعد على ذلك كثرة القراءة في كتب التراجم المنتجة مثل هذا الكتاب وغيره للتذكير بالهدف، مع ملازمة اللجوء إلى الله، وإدمان التعلق به، فهو الباب وهو الأول وهو الآخر وهو نعم المولى ونعم النصير.

وفقني الله وإياكم لما فيه صلاح حالنا ومآلنا وخير دنيانا وأخرانا.

وهنيئًا لك – أختاه – هذه الخطوات على طريق أمّ موسى عليه السلام، ومن بعدها من العظيمات الكريمات.

والحمد لله ربّ العالمين.

فهرس الموضوعات